

الفصل الثاني

الأغراض الحديثة

- ١ - شعر الجهاد
- ٢ - وصف الطبيعة
- ٣ - وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية

شعر الجهاد

خاض سيف الدولة حرباً ضروساً ضد الدولة البيزنطية استمر لظاها أكثر من عشرين عاماً ، ولقي الروم فيما يزيد على أربعين معركة كُتِبَ له النصر في معظمها وذاد عن ذمار الإسلام وحرمة وناصح عن بلاد العرب ودنياهم . ووقف سداً منيعاً أمام الخطر البيزنطي الداهم فقلّ جيوشهم وألحق الهزيمة بصفوفهم وجاس خلال ديارهم ووصل إلى بُعد سبعة أميال من عاصمتهم .

كان سيف الدولة رجل عزم وقوة ، وصاحب مبدأ وعقيدة ، وشعر شعوراً قوياً أن الجهاد في سبيل الله فرض " من الفروض المقدسة وأن دفع طغيان الأجنبي واجب سام فكرس جهده ووقف حياته وعمل بكل طاقته على إعداد الجيوش وتجهيتها لمجابهة الخطر الداهم من الروم ، الذين شعروا أن الفرصة سانحة وأن الوقت مناسب لتحقيق آمالهم وشفاء أحقاد نفوسهم القديمة منذ الفتح الإسلامي وقد شجعهم ضعف الدولة العباسية في القرن الرابع وتفككها إلى إمارات صغيرة متطاحنة على أن يسعوا لتحقيق أطماعهم المبيتة ولكن أمير حلب الفتيّ الأبي نهّد لمقارعتهم طوال حكمه ووقف عقبة كئوداً في طريق خططهم المرسومة التي كانت تهدف - كما أشرنا سابقاً - للاستيلاء على بيت المقدس وديار الإسلام .

ولقد أشرع الروم على سيف الدولة حرباً صليبية قبل أن تظهر الحروب

الصليبية المعروفة وكانوا يسمّون سيف الدولة (الكافر الحمداني) كما كان رجال سياستهم يعدّونه «المحارب الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدسة على النصرانية»^(١) ويقول شلبرجة — أحد مؤرخي الغرب عن حرب سيف الدولة مع الروم : «إن المتصفح لمقتطفات التاريخ البيزنطي في منتصف القرن العاشر ولأكثر من عشرين عاماً يجد اسماً وحيداً يطفو على كل صفحة من صفحات ذلك التاريخ كإنسان شجاع لا يملّ ولا يكلّ ولا يتعب ، وذلك هو أمير حلب سيف الدولة بن حمدان الذي كان عدواً لدوداً للامبراطورية البيزنطية»^(٢) .

وكان من الطبيعيّ أن تترك هذه الحروب الطاحنة والمعارك المتأججة أثرها في شعر الندوة السيفية ، فصورّ الشعراء ولا سيما المتنبي وأبي فراس اللذين خاضا غمار المعارك في هذه الحروب خير تصوير ، ووصفوا المواقع والتحام الجيوش واجتياز السهول وتخريب المدن وأسر السبايا وغير هذا وذلك مما يرافق الحرب من أهوال وويلات . وأخرجوا لنا شعراً جديداً رائعاً هو شهر الجهاد .

ومن دراستنا لهذا الشعر واستجلاء ملامحه نرى أن الشعراء قد عدّوا هذه الحروب صراعاً دينياً فصوروها حرباً بين الإسلام والكفر وانتصاراً لدين الله القويم على أعداء الإسلام من المشركين . والإلماعات إلى ذلك في شعرهم كثيرة فالمتنبي يقول حين يمدح سيف الدولة — في إحدى معاركه — بأنه لا يقاتل الروم قتال فرد لقريته وإنما يقاتلهم قتال مبدأ وعقيدة ، يقاتل مدافعاً عن دين الإسلام ومنتصراً له على الشرك^(٣) :

(١) شعر الحرب في أدب العرب : زكي المحاسني (٢٥٩) .

(٢) سيف الدولة الحمداني : د. الشكعة (١١٩) .

(٣) ديوان المتنبي (٣ / ٣٩١) .

وَلَسْتَ مَلِيكاً هَازِماً لِنَظِيرِهِ وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرِكِ هَازِمٌ

والسريّ الرفاء يقول في وصفه لإحدى هذه المعارك : ان المسلمين حين انتصروا على الروم كان انتصارهم قضاء على الكفار (١) :

أَفْنَتَ ظُبَاكَ الرُّومَ حَتَّى لَانَتْهَا لَمْ تُبْقِ مِنْهَا ظَبِيَّةٌ أَوْ رِيماً
وَمَحَوْتَ آثَارَ الصَّلِيبِ فَلَمْ تَدَعْ لِلْعَيْنِ مِنْهَا مَعْلَماً مَعْلوماً

ويتحدث الشاعر في قصيدة أخرى عن انتصار الأمير الحمداني على الروم فيُعده عزة للإسلام وعظمة فيقول :

فَتَحَّ أَعْزَ بِهِ الْإِسْلَامُ صَاحِبُهُ وَرَدَّ ثَاقِبَ نَوْرِ الْمُلْكِ ثَاقِبُهُ

وفي الموضوع نفسه قال (٢) :

رَمَى الصَّلِيبَ وَأَبْنَاءَ الصَّلِيبِ فَلَمْ تُغْمَدْ صَوَارِمُهُ إِلَّا وَهْمَ رِمَمٍ
بِالْبَيْضِ تُنْكِرُهَا الْأَغْمَادُ مُغْمَدَةً وَالْجُرْدُ تَعْرِفُهَا الْغِيْطَانُ وَالْأَكْمُ

ولقد كثرت معارك سيف الدولة مع الروم وكثيراً ما كان ينتصر وأحياناً كان ينهزم والشعر في كل هذه الحالات يصف لنا فرحة النصر أو لوعة الهزيمة ، واعتمد الشعراء في وصفهم لهذه الحروب على إبراز الخطط وتنسيق الجيوش ووصف القادة ، بل إنهم أيضاً وصفوا مشاعروأحاسيس المتحاربين (٣) .

وكان المتنبي أبرع شعراء الندوة السيفية في وصف حروب الأمير مع الروم إذ سجل في سيفياته كل حوادث هذه الحروب فوصف ظَفَرَ الأمير

(١) ديوان السري (٢٥٠) .

(٢) المصدر نفسه (٢٤٦) .

(٣) مع المتنبي : د. طه حسين (٢٣٠) .

الصاعق وانخذهال الروم الساحق وفرار ملكيهم وقوادهم وتشيت جيوشهم
واندحارها .

ولقد كان هذا الفن أصيلاً لديه ينبع من نفسه إذ كان فارساً مقدماً
وشاعراً بارعاً رافق سيف الدولة في أكثر حروبه ، وشهداها معه وحارب
فيها إلى جانبه . ولقد أكثر من وصف حروب الأمير الحمداني وأجاد حتى
قال ابن الأثير « إذا خاض المتنبي في معركة كان لسانه أمضى من نصالها
وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظنّ الفريقين قد
تقابلوا والسياحين قد تواصلوا » . وإن قصائد المتنبي هذه فوق ما حوته من قيمة
أدبية وسحر بيان وتخليق في فن المعاني والأسلوب وسمو في الصنعة فإنها تجمع
في أبياتها قيمة تاريخية وجغرافية غالية القدر وتعدّ وثائق في غاية الخطورة
كتابة التاريخ السياسي والتحقيق الأدبي عن عصر سيف الدولة (١) .

وكانت أول معركة شهداها المتنبي من معارك سيف الدولة مع الروم في سنة
تسع وثلاثين وثلاثمائة ففيها تقدم الأمير الحمداني في الأرض البيزنطية فاتح
مكتسحاً حتى وصل إلى صارخة (٢) وهي غير بعيدة عن القسطنطينية وظفر
سيف الدولة وغنم غنيمة كبرى ولكنه عندما أراد الخروج من بلاد الروم
أخذوا عليه الدّرب فقتل خلق كثير من جيش سيف الدولة وكان سيف الدولة
نفسه يهلك فسميت تلك الغزاة غزاة المصيبة (٣) فأنشد المتنبي قصيدته بالحديث
عن الناس الذين لا يمكن الحكم عليهم إلاّ بعد التجربة والذين يجبنون عند
القتال ويشجعون عند الحديث (٤) :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

(١) شعر الحروب في أدب العرب : الدكتور زكي المحاسني (٢٧٤) .

(٢) صارخة : في أرض البقلاء بناحية خرشنة .

(٣) تجارب الأمم (٢ / ١٢٥) .

(٤) ديوان المتنبي (٢ / ٢٣٠) .

أهل الحفيظة إلا أن تجرّبهم وفي التجارب بعد الغي ما يزع^(١)
وما الحياة ونفسي بعد ما علمت أن الحياة كما لا تشتهي طبع^(٢)
ليس الجمال لوجه صحّ مارن^(٣) أنف العزيز بقطع الغزّ يمتدح^(٤)

ونلاحظ رنة الأسى والألم في حديث المتنبي وتعريضه بالجناء الذين
يجبّون وقت الواقعة ويظهرون الحمية والإقدام وهم بعيدون عنها ولعله
بمخاطبة نفسه أراد التعريض بأصحاب سيف الدولة .

ثم يمتدح الشاعر بطولة الأمير وشجاعته ويصف ما كان عليه من الجد^(٥)
والعزيمة في لقاء العدو ونزوله على خرّشنة وشقاء الروم ويبعثهم وصلبانهم^(٦) :

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش ببن أبي الهيجاء يمتنع
قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سراع^(٧)
لا يعتفي بلد مسراه عن بلد كالموت ليس له ري ولا شبع^(٨)
حتى أقام على أرباض خرّشنة تشقى به الروم والصلبان والبائع
وينساب الشاعر واصفاً ما حاق بالروم من تدمير وقتل وسبي فيقول :

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
مخلى له المرج منصوباً بصارخة له المنابر مشهوداً بها الجمع^(٩)

-
- (١) الحفيظة : الحمية والانفة . ما يزع : يكف ويردع .
(٢) الطبع : الدنس .
(٣) المارن : ما لان من الانف .
(٤) ديوان المتنبي (٢ / ٣٣٣) .
(٥) المقانب : جمع مقنب ، جماعة الخيل زهاء الثلاثمائة . النهل : الشرب
الاول . الشكيم : جمع شكيمة ، الحديدية المعترضة في فم الفرس من
اللجام .
(٦) لا يعتفي : اي لا يعتاق .
(٧) المرج : موضع ببلاد الروم . صارخة : مدينة من مدائنهم .

يَطْمَحُ الطَّيْرُ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْأَنِهِمْ . حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعِ

وَيَسْتَطِرِدُ الْمُنْبِي فِيصِفُ الْخَيْلَ وَسُرْعَةَ جَرِيهَا وَمَوَاصِلَتَهَا السَّيْرَ وَالْغَبَارَ
الَّذِي يَمْلَأُ مَنَاخِرَهَا لِرُكُضِهَا السَّرِيعِ وَهِيَ تَخْتَلِسُ الْمَاءَ اخْتِلَاساً لَتَوَاصِلِ عَدُوِّهَا .
وَكَأَنَّ الْفُرْسَانَ الَّذِينَ يَمْتَطُونَهَا يَشْتَبُونَ لَهَا طَرِيقَهَا بَيْنَ صُفُوفِ الرُّومِ فَتَدُوسُهُمْ
بِحَوَافِرِهَا . وَإِذَا أَظْلَمَتِ سَاحَةُ الْحَرْبِ بِالْغَبَارِ هَدَّتْ عَيُونََ الْخَيْلِ فِيهَا نَارُ
الْأَسِنَّةِ :

يَذُرِي اللَّقَانَ غُبَاراً فِي مَنَاخِرِهَا وَفِي حَنَاجِرِهَا مِنْ آلَسٍ جُرْعُ (١)
كَأَنَّهُ تَتَلَقَّاهُمْ لِيَتَسَلَّكَنَّيْهُمْ فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَافِ مَا تَسْعُ
تَهْدِي نَوَازِرَهَا وَالْحَرْبُ مُظْلِمَةٌ مِنْ الْأَسِنَّةِ نَارٌ وَالْقَنَا شَمْعُ
دُونَ السَّهَامِ وَدُونَ الْقَرِّ طَافِحَةٌ عَلَى نَفُوسِهِمْ الْمُقَوَّرَةُ الْمُرْعُ (٢)

وَيَمْضِي الْمُنْبِي وَاصِفاً هَزِيمَةَ الرُّومِ وَصِفاً رَائِعاً حَقّاً فِيصِفُ هَزِيمَةَ قَائِدِ
الْجَيْشِ الرُّومِيِّ وَقَتْلَ وَأَسْرَ جُنْدِهِ وَفِرَارَ مَنْ نَجَا وَفِي قَلْبِهِ فَرْعٌ يَقْتُلُهُ وَلَوْ
بَعْدَ حِينٍ :

إِذَا دَعَا الْعُلْجُ عِلْجاً حَالَ بَيْنَهُمَا أَظْمَى تَفَارَقُ مِنْهُ أُخْتَهَا الضَّلَعُ (٣)
أَجَلٌ مِنْ وَلَدِ الْفَقَّاسِ مِنْكَتِفٌ إِذْ فَاتَهُنَّ وَأَمْضَى مِنْهُ مُنْصَرَعُ (٤)
وَمَا نَجَا مِنْ شِفَارِ الْبَيْضِ مُنْفَلِتٌ نَجَا وَمِنْهُمْ فِي أَحْشَائِهِ فَرْعُ (٥)

-
- (١) اللقان : موضع في بلاد الروم : آلس : نهر في بلاد الروم .
(٢) يقال لوهج الصيف وغبراته : سهام - بفتح السين - والسهام : حر السموم .
(٣) العُلج : الرجل الغليظ من كفار العجم . اظْمى : يعني رمحا اسمر .
(٤) الفقَّاس : جد الدمستق . وقال ابن جنبي : هو الدمستق كأنه لقبه .
(٥) شفار : جمع شفرة : حد السيف .

يُبَاشِرُ الْأَمْنَ دَهْرًا وَهُوَ مَخْتَبَلٌ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ حَوْلًا وَهُوَ مُسْتَقٌ
وينتقل المتنبي إلى وصف البطارقة المقيدين بالأغلال وأن أرواحهم في
ضمان القيّد للسيوف. وأن القيد يعوقهم عن الخطو إن أرادوا السير ويمنعهم
النوم عند الاضطجاع :

كَمْ مِنْ حَشَاشَةٍ بِطَرِيقٍ تَضَمَّنَهَا لِلْبَاتِرَاتِ أَمِينٌ مَا لَهُ وَرَعٌ
يَقَاتِلُ الْخَطْوُ مِنْهُ حِينَ يَطْلُبُهُ وَيَطْرُدُ النَّوْمُ عَنْهُ حِينَ يَضْطَجِعُ
تَغْدُو الْمَنَايَا فَلَا تَنْفَكُ وَاقِفَةً حَتَّى يَقُولَ لَهَا عُودِي فَتَنْدَفِعُ

ويتحدث الشاعر عن هزيمة سيف الدولة وهو أمر خطير ودقيق ولكن
الشاعر بجيد التعليل ويحسن التفسير فهو لم يصرّح كيف تحول النصر إلى هزيمة
ولكنه قال أن سبب الهزيمة مَنْ لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبّاء وأن
الأسرى الذين وقعوا في يد الروم جازاهم الله على تقاعسهم وخذلانهم للأمر .
وهم كالأموات لا يأكلهم إلا الضباع . ثم يهدّد الروم بأن كل معركة بعد
هذه سيكون النصر فيها للأمير لأن جنده قد نقيت من الجبّاء ولم يعد فيها
إلا الأبطال :

قُلْ لِلدِّمَسْتَقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ
ضَعْفَى تَعِيفَ الْأَيَادِي عَنْ مِثَالِهِمْ
لَا تَحْسَبُوا مَنْ أَسْرَمَ كَانَ ذَا رَمَقٍ
وَلِنَا عَرَضَ اللَّهُ الْجُنُودَ لَكُمْ
فَكُلَّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَاةٍ
خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
كَأَنَّ قَتْلَكُمْ إِيَّاهُمْ فَجَعُوا
مِنَ الْأَعَادِي وَإِنْ هَمُّوا بِهِمْ نَزَعُوا^(١)
فَلَيْسَ بِأَكْلٍ إِلَّا الْمَيْتَ الضَّبُعُ
لَكِي يَكُونُوا بَلَا فَسَلْ إِذَا رَجَعُوا^(٢)
وَكُلَّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

(١) ضعفى : جمع ضعيف .

(٢) الفسل : الرذل الدنيء العاجز .

ويعد هذا التعليل الرائع للهزيمة يعزّي المتنبي سيف الدولة ويهون الأمر عليه فيجعله في مكان فوق الشمس والسيف يأتمر بأمره وأرض الروم مصطاف ومرتبِع لجنده :

وهلْ يَشِينُكَ وَقْتُ كُنْتَ فَارِسَهُ وكان غيرك فيه العاجزُ الضَّرْعُ^(١)
مَنْ كان فوق محلّ الشمسَ موضعه فليس يرفعه شيءٌ ولا يَضَعُ
الدَّهْرُ معْتَدِرٌ والسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ وأرضهم لكْ مُصْطَافٌ ومرتبِعٌ^(٢)

ولعلك تتفق معي على أن هذه القصيدة تعد من عيون شعر الجهاد التي برع فيها المتنبي ووفق إلى حد كبير .

وقد أخذ الدمستق بعد هذه المعركة يحوم حول الثغور الإسلامية حتى وصل إلى مَرْعَش واستعدّ سيف الدولة لقتاله وأوقع به وفرّ الدمستق هارباً ولكن بعد أن هدم سور المدينة فأعاد الأمير بناءه^(٣) :

وتحدث المتنبي عن هذه المعركة ووصف هزيمة الدمستق وهربه . فقال^(٤) :
سراياك تترى والدمستق هاربٌ وأصحابه قَتلى وأمواله نُهبي^(٥)
أتى مَرْعَشاً يَسْتَقْرِبُ البُعْدَ مَقْبِلاً وأدبرَ إذا أَقْبَلْتَ يَسْتَبْعِدُ القُرْبَا^(٦)

ووصف السري الرفاء هذه المعركة وتحدث عن خيل سيف الدولة وقد تقدمت إلى أرض الروم تثير العِثِيرَ لسرعتها ويغطي الغبار وجوها فكَأَنها

-
- (١) الضارع : الضعيف .
(٢) مصطاف ومرتبِع : المنزل في الصيف والربيع .
(٣) زبدة الحلب (١ / ١٢٢) .
(٤) ديوان المتنبي (١ / ١٨٨) .
(٥) السرايا : جمع سرية وهي الجماعة من الجيش .
(٦) مرعش : مدينة من أعمال حلب ولها مياه وزروع وأشجار ولها سور منيع وهي قريبة من الحدث (بغية الطلب) ورقة (٣٠٧) .

مقنّعة ببراقع . وقد انتهت المعركة بعد أن دُكَّتْ حصون الروم وأصبحت
البلاد خراباً^(١) :

خَطَا الدُرْبَ الْأَصَمَّ إِلَى سَهْدٍ وَقَعَقَةُ الْحَدِيدِ لَهَا حَدِيدُ
وَقَادَ الْحَيْلَ قُبَّاً يَقْتَضِيهَا ذَخِيرَةَ جُهْدِهَا أَوْ يَسْتَرِيدُ
وَرَارَتْ أَرْضَ خَرَشْنَةَ رِعَالاً فَكَادَتْ أَرْضُ خَرَشْنَةَ تَمِيدُ
وَجَزْنَ عَلَى الصَّعِيدِ مُبْرِقَاتٍ بَرَاقِعُهُنَّ مَا نَسَجَ الصَّعِيدُ
وَبَاتَتْ تُوقِدُ النِّيرَانُ فِيهَا وَسَيَّانَ الْكَوَكِبُ وَالْوَقُودُ
وَسُحْنُ بَجَانِبِي سَيِّحَانٍ حَتَّى رَجَعْنَ وَفَجَّهُ الْمَعْمُورِ بِيَدُ

وعلى أثر هذه المعركة أرسل ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء
والهدنة ، فدخل المتنبي على الأمير وعنده رسول ملك الروم ولبوءة مقتولة
بين يديه ومعها ثلاثة أشبال حيّة فقال مرتجلاً^(٢) :

لَقَيْتَ الْعُقَاةَ بِأَمَالِهَا وَزُرْتَ الْعُدَاةَ بِأَجَالِهَا
وَأَقْبَلْتَ الرُّومَ تَمْشِي إِلَيْهِ مَكَانَ بَيْنَ اللَّيْثِ وَأَشْبَالِهَا
إِذَا رَأَتْ الْأُسْدَ مَسْبِيَّةً فَأَيْنَ تَفِيرَ بِأُطْفَالِهَا

ويبدو أن أمور الهدنة والفداء كانت تأخذ شكلاً رسمياً فابن خالويه
يقول : قال أبو فراس وفد رسول ملك الروم لطلب الهدنة فأمر سيف الدولة
بالركوب والسلاح فركب من داره ألف غلام مملوك بألف جوشن مذهب
على ألف فرس عتيق بألف تجفاف^(٣) وركب الناس والقواد حتى طبّق الجيش
جبل الجوشن فقال أبو فراس^(٤) :

(١) ديوان السري الرفاه (٧٦) .

(٢) ديوان المتنبي (٣ / ٢١٥) .

(٣) التجفاف : آلة الحرب يلبسه الفرس والحصان وتشبه الدرع .

(٤) ديوان أبي فراس (١ / ٦٥) .

عَلَوْنَا جَوْشَنًا بِأَشَدِّ مِنْهُ وَأُثْبِتَ عِنْدَ مُشْتَجَرِ الرَّمَاحِ
بِجَيْشٍ جَاشٍ بِالْفَرَسَانِ حَتَّى ظَنَنْتُ الْبَرَّ بَحْرًا مِنْ سِلَاحِ
وَالسِّنَّةِ مِنَ الْعَذَابِ حَمْرٍ تَخَاطَبُنَا بِأَفْوَاهِ الرَّمَاحِ

وفي سنة ٣٤٢ هـ خرج سيف الدولة لقتال الروم واكتسح كثيراً من المواقع ، فانتهاز العدو الفرصة وأغار على بعض الأطراف الإسلامية ، فبلغ الخبر سيف الدولة فانطلق لإثر العدو وأدركه عند نهر جيحان فأنشد المتنبي قصيدته اللامية التي تعد من روائع شعر الجهاد في الأدب العربي إذ لم تكن أروعها ، ولقد بدأ قصيدته بغزل حزين فيه رقة وعذوبة ووصف عدم تغير حاله بعد الأحبة وبقاءه على الحب والشوق وتصبره على بعدهم (١) :

لياليَّ بعدَ الظاعنينَ شكُّولُ طِوالُ وليلُ العاشقينَ طويلُ (٢)
يُبْنِي ليَ البدرَ الذي لا أريدُهُ ويخفينَ بَدْرًا ما إليه سبيلُ
وما عشتُ من بعدِ الأحبةِ سلوةً ولكنني للنائبِ حمولُ

وينتقل الشاعر إلى وصف المعركة فيصف هجوم الخيل على أرض العدو ويتحدث عن انطلاقها السريع ويشبهها بانطلاق السهام ، ويذكر أن أصواتها تنم عن النشاط والقوة وهي تُغذِّ الرِّكْضَ رافعة أذنانها في مَرَحٍ وصهيل . وهي لا تقف في بلد نهراً حتى تغادره إلى غيره ليلاً حتى فاجأت الروم وأخذتهم على غرةٍ وصُبَّ عليهم الموتُ من هذا العارض الذي أمطرهم حديدًا : رمى الدَّربَ بالجرَدِ الجيادِ إلى العِدا وما علموا أنَّ السِّهامَ خيولُ (٣)

(١) ديوان المتنبي (٣ / ٢١٧) .

(٢) الظاعنين : جمع ظاعن : المرتحل . شكول : جمع شكل : أي شبيهه .

(٣) الجرد : الخيل القصيرة شعر الجلد .

شوائِلُ تشوالِ العقاربِ بالقنّا لها مَرَحٌ منْ تحتِهٍ وصهيلُ^(١)
 وخيلٍ براها الركضِ في كلِّ بادّةٍ إذا عرّست فيها فليسَ ثقيلُ^(٢)
 فما شعروا حتى رأوها مُغيرةً قباحاً وأما خلقُها فجميلُ
 سحائبُ يَطرِنَ الحديدَ عليهِم فكلُّ مكانٍ بالسّيوفِ غَسِيلُ

ويستطرد الشاعر فيصف ما حاق بالروم من تدمير وقتل ويتحدث عن
 تنقل الخيل السريع من مكان إلى آخر منزلة الهزيمة الساحقة بالروم وجندهم
 بقوله :

وعادتَ فظنّوها بموزارَ قُفلاً وليس لها إلّا الدّخولِ قفولُ^(٣)
 فخاضتْ نجيعُ الجمعِ خوضاً كأنّه بكلِّ نجيعٍ لم تخضه كفيلُ^(٤)
 تُسايِرُها النيرانُ في كلِّ مسلكٍ به القوم صرعى والديارُ طُلُولُ
 وكرتَ فَمَرَّتْ في دِماءٍ ملطيةً ملطيةً أمٌ للبنينِ شكُولُ^(٥)
 ورعنَ بنا قلبَ الفراتِ كأنّما تحرّ عليه بالرجالِ سيُولُ
 ودونَ سَمِيساطُ المطاميرُ والملا وأوديةً مجهُولَةٌ وهَجُولُ^(٦)

وَيصور المتنبي الموقعة تصويراً رائعاً حتى نظن أننا نشاهد أحداثها ونسمع

-
- (١) شوائِلُ : شالت العقرب ذنبها : رفعته . المرح : لعب يتبعه النشاط .
 (٢) التعريس : نزول الركب آخر الليل للاستراحة .
 (٣) موزار : حصن ببلاد الروم . قفول : رجوع .
 (٤) نجيع : دم الجوف خاصة .
 (٥) ملطية : مدينة كبيرة حصينة تعد من أكثر الثغور وحولها جبال كثيرة
 الاثمار ومياهها كثيرة من العيون ومن الفرات : بغية الطلب ورقة
 (٣١٩) .

(٦) سَمِيساط : مدينة صغيرة على الفرات ولها قلعة حصينة : بغية الطلب
 ورقة (٣٣٠) . المطامير : جمع مطمورة وهي الحفرة الفائرة في الارض
 يخبأ فيها الطعام والشراب . والملا : جمع ملاة وهي الفلاة ذات الحر
 والسراب . الهجول جمع هجل : المطمئن من الارض .

صليل سيوفها وقرع رماحها ، ويصف فرار برداس ووقوع ابنه في الأسر
ويتوعد الدمستق ويتهكم عليه في سخرية شديدة فيقول :

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ فَضُولُ
وَأَنَّ رِمَاحَ الْخَطِّ عَنْهُ قَصِيرَةٌ وَأَنَّ حديدَ الْهِنْدِ عَنْهُ كَلِيلُ
فَأُورِدَهُمْ صَدْرَ الْحِصَانِ وَسَيْفَهُ فَتَى بِأَسُهُ مِثْلُ الْعَطَاءِ جَزِيلُ
جَوَادٌ عَلَى الْعِلَاتِ بِالْمَالِ كُلِّهِ وَلَكِنَّهُ بِالْأَدَارِعِينَ بَخِيلُ
فَوَدَّعَ قَتْلَهُمْ وَشَيَّعَ فَلَهُمْ بَضْرِبِ حُزُونِ الْبَيْضِ^(١) فِيهِ سَهْلُ
عَلَى قَلْبِ قُسْطَنْطِينَ مِنْهُ تَعَجَّبُ وَإِنْ كَانَ فِي سَاقِيهِ مِنْهُ كَبُولُ^(٢)
لَعَلَّكَ يَوْمًا يَا دِمُسْتَقُ عَائِدُ فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يَثُولُ^(٣)
نَجَوْتُ بِإِحْدَى مَهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً وَخَلَفْتُ لِأَحْدَى مَهْجَتَيْكَ تَسِيلُ^(٤)
أَتُسَلِّمُ لِلْخَطِيئَةِ ابْنُكَ هَارِبًا وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ^(٥)

وبلغت المتنبي بعد ذلك إلى أعداء الأمير الحمداني من ملوك المسلمين
ويعرض بهم قائلاً :

فَدَتِكَ مَلُوكٌ لَمْ تُسَمِّ مَوَاضِيًا فَإِنَّكَ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ صَقِيلُ
إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ فَفِي النَّاسِ بَوَاقُهَا وَطَبُولُ

ويبدو أن المتنبي قد قصد بهجائه معز الدولة البويهري لتقصيره في حرب
الروم أعداء الإسلام والمسلمين واكتفائه بالطبول والأبواق .

-
- (١) الفل : المنهزمون . الحزن : جمع حزن : ما غلظ من الأرض .
(٢) كبول : جمع كبل : القيد الضخم .
(٣) المهجة : الروح .
(٤) الخطية : الرماح .
(٥) ديوان المتنبي (٢ / ٥) .

ولقد تحدث المتنبي عن هذه المعركة في قصيدة ثافية مدح بها سيف الدولة وهنأه بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وأنشده إياها بحلب وهما على فرسيهما ، وذكر في قصيدته أسر ابن الدمستق — الذي مات في أسره بعلة اعتلتها — وفرار أبيه المشين وأشار إلى ترهب الدمستق ودخوله الديار حزناً على ولده (١) .

ومعركة كهذه المعركة التي خاضها سيف الدولة لا بد أن تترك أثرها الكبير في نفوس الشعراء ولذلك تسابق شعراء الندوة السيفية للحديث عنها فقال أبو فراس يصف قسطنطين ابن الدمستق في أصفاده تحف به البطاريق وكأنه في موكب ولكن أي موكب أنه موكب الهزيمة (٢) :

فلما رأت جيشَ الدّمستقِ راجعتْ عزائمها واستنهضتها البصائرُ
وما زلنَ يحملنَ النفوسَ على الوجي إلى أنْ خضبنَ بالدماءِ الأشاعيرُ
وأبنَ بقسطنطينَ وهوَ مُكبَّلٌ تحفَ بطاريقُ به وزراورُ
وولّى على الرسمِ الدّمستقِ هارباً وفي وجهه عذرٌ من السيفِ عاذِرُ

وقال النامي مشيراً إلى ترهب الدمستق ودخوله الديار (٣) :

لكنّه طَلَبَ الرَّهَبَ خِيفَةً مَمَّنْ لَهُ تَتَقَاصِرُ الأَعْمَارُ
فمَكَانُ قَائِمِ سَيْفِهِ عُكَاظُهُ وَمَكَانُ مَا يَتَمَنَّى نَطَقُ الزَّنَارُ

ويتحدث السري الرفاء عن هذه الموقعة واصفاً شجاعة الأمير وبأسه وحسن بلائه بالروم فيقول (٤) :

(١) ديوان المتنبي (٢ / ٥) .

(٢) ديوان أبي فراس (١ / ١١٨) .

(٣) شعر النامي (٥٧) .

(٤) ديوان السري الرفاء (٢٠٧) .

هِيَ الصَّوَارِمُ وَالْخَطِيئَةُ الذَّبْلُ وَالْحَرْبُ كَاشِرَةٌ أَنْيَابُهَا عُصْلُ
وَاللَّيْسُ أَصْحَرَ حَتَّى لَا حِصُونَ لَهُ وَلَا مَعَاقِلَ إِلَّا الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ
وَالرُّومُ تَبْذُلُ مَا رَامَتْ أَسِنَّتُهُ وَهَلْ لَهَا بِالْمَنَايَا أَقْبَلَتْ قَبْلُ

وَيَصِفُ السَّري الرَّفَاءَ جِيَادَ الْأَمِيرِ النَشِيطَةَ السَّرِيعَةَ الْعَدُوِّ ، وَيَتَحَدَّثُ عَمَّا
حَاقَ بِبِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَدْمِيرٍ وَخَرَابٍ فَيَقُولُ :

قَادَ الْجِيَادَ لَهُ مِنْ وَطَنِهَا صَخَبٌ عَلَى الصَّخُورِ وَمِنْ أَرْهَاجِهَا طُلُلُ
يَوْمَ خَرَشَنَةِ الْعُلَيَّا فَيُصْنَحِبُهَا بِالْخَيْلِ تَصْهَلُ وَالرَّايَاتُ تَرْتَجُلُ
وَحَكَمَ السَّيْفِ فِيهَا عَادِلًا فَغَدَتْ وَأَهْلُهَا جَزَرَ لِلْسَّيْفِ أَوْ نَقَلَ
مَحْمَرَةً مِنْ دِمَاءِ الْقَوْمِ مُشْعَلَةً سَيَّانٍ فِيهَا الْمَنَايَا الْحُمْرُ وَالشَّعْلُ

وَيَصِفُ ابْنَ نُبَاتَةَ السَّعْدِي هَذِهِ الْمَوْقِعَةَ بِقَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ تَحْدُثُ فِيهَا عَنْ
اِقْتِحَامِ الْأَمِيرِ لِبِلَادِ الرُّومِ وَتَطَوُّفِهِ فِي دِيَارِهِمْ فَاتِحًا لِلْحِصُونِ وَمُنْكَلًا بِالْأَعْدَاءِ
وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ :

فَطُوفَ فِي بِلَادِ الرُّومِ حَتَّى تَوَهَّمَنَاهُ قَدْ ضَلَّ السَّبِيلَا
وَكَيْفَ يَضِلَّ فِي سُبُلِ الْمَعَالِي فَتَى جَعَلَ الْحَسَامَ لَهُ دَلِيلَا
كَأَنَّ حِصُونَهُمْ نَادَتْ نَدَاهُ أَوْ اخْتَارَتْ بِسَاكِنِهَا بَدِيلَا
كَأَنَّ بِلَادَهُمْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحَهَا مَخَافَةَ أَنْ يَزُولَا

وَيَنْتَقِلُ ابْنُ نُبَاتَةَ فَيَصِفُ خَيْلَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ النَشِيطَةَ السَّرِيعَةَ الْجَرِيَّ وَالَّتِي
تَقْتَحِمُ الْمِيَاهُ وَتَخُوضُ الْأَنْهَارَ بِقَوْلِهِ :

كَأَنَّ الْخَيْلَ مِنْ مَرَحٍ وَلَهْوٍ تُنَازِعُهُ إِذَا نَزَلَ الرَّحِيلَا
دِقَاقُ كَالْأَهْلَةِ فِي الْأَعَادِي تَعْلَمُ مِنْ ذَوَابِلِهِ النُّحُولَا

يخوضُ بها الفُراتَ فتىً يُلَاقِي بوجهِ المرتِ في الغمراتِ سُولا
ولو أنَّ الفُراتَ عصى عليه لردَّ السيلَ منه أن يسبلا

ويشير الشاعر إلى هجوم الروم على بعض ثغور المسلمين وعودة سيف الدولة السريعة للانقضاض عليهم بقوله :

فما ضحكْتَ بحصنِ الرّآنِ حتّى بكّت حلبٌ ورجعتِ العويلا
فكرّرتِ نحوَ عَوَلَتِها رُجُوعاً ككرّراتِ اللّيوثِ حمّتِ شُبُولا
إلى بحرٍ بمرعشٍ من حديدٍ فأوردّها شرائعهُ سُبُولا

ويتحدث عن أسر قسطنطين حديثاً سريعاً وموجزاً فيقول :

فقالوا هاك قسطنطينَ خذهُ ونهْنِه من أعنتها قليلا

وواضح أن المتنبّي كان يفوق شعراء الندوة السيفية كافة في هذا اللون من الشعر فهو لا يُضاهى ولا يجارى لأنه شاعر الحرب وصاحب الكلمة النابعة من القلب والمليئة بالإحساس والتصوير الرائع للمعارك والحروب .

وتتوالى الحروب وتستمر بين سيف الدولة والروم ويحاول الأمير الحمداني في سنة ٣٤٣ هـ بناء قلعة الحدث^(١) التي خربها الروم في عام ٣٣٧ هـ حيث خرج إليها بجيشه وأخذ يعيد بناء سورها المتهدم وشارك في ذلك بنفسه لكي يتمكن من إنهاء عملية التحصين في أسرع وقت ممكن . ولكن ما أن تناهى خبر استرداد هذا الحصن إلى سمع قائد الروم برداس حتى سارع إلى لقاء سيف الدولة في جيش لجب وكثيف يبلغ عدد جنوده خمسين ألفاً من روم وروس وأرمن وصقلب وبلغار^(٢) .

(١) الحدث : قلعة حصينة بين ملطية وسميساط وهي في الشمال الشرقي

من مرعش : معجم البلدان (٢ / ٢١٠) .

(٢) نخبة تاريخية : كانار (١٠٨) .

وقد وقعت المعركة وانتصر المسلمون على الرغم من تفوق العدو في العدد والعدة . وقتل في هذه الحرب نحو ثلاثة آلاف من جنود الروم فضلاً عن الأسرى من بطارقة وجند ، وفي مقدمتهم تودس الأعور بطريق سَمَنْدُو وصهر فوكاس كما أُسر أيضاً ابنُ ابنة الدمستق (١) .

ولقد وصف المتنبي هذه المعركة في قصيدته الميمية وصفاً حماسياً رائعاً فقال (٢) :

على قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ
يَكْلَفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْخُضَارِمُ (٣)

وينتقل المتنبي فيصف معركة الحَدَث الحمراء لكثرة دمائها وصفاً بارعاً ويذكر جماجم الروم الكثيرة التي بترتها سيوف الحمدانيين ويتحدث عن بنائها وقد اضطرعت السيوف واشتجرت الرماح فيقول :

هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تُعَرَفُ لَوْنُهَا وَتَعْلَمُ أَيَّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ (٤)
سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْعُرَّ قَبْلَ نَزْوِلِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَاجِمُ
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقَرَّعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوَّلَهَا مُتَلَاظِمُ

وينتقل الشاعر إلى وصف بطولة الأمير الذي زاد عن المدينة وحماها من غدر الروم وحلفائهم فيقول :

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٦) ، ابن الاثير (٨ / ١٨٣) .

(٢) ديوان المتنبي (٤ / ٩٦) .

(٣) الخضارم : جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شيء .

(٤) الحدث : قلعة حصينة ويقال لها الحمراء لأنها تربتها حمراء وقلعتها

على جبل يقال له الاحيدب : معجم البلدان (٢ / ١١٨ - ١١٠) .

بغية الطلب ورقة (٣١١) .

وكيف تُرجي الروم والروس هدمها وذا الطعنُ أساسٌ هنا ودعائهم
وقد حاكموها والمنايا حواكم فما مات مظلومٌ ولا عاش ظالمٌ

ويستطرد الشاعر فيصف جيش الروم اللّجب الذي أتى مدججاً بالسلاح
وجمع أجناس عديدة تباينت لغاتها واختلفت لهجاتها فيقول :

أتوكَ يجرّونَ الحديدَ كأنّهمُ سرّوا ببيادٍ ما لهنَّ قوائمُ
إذا برّقوا لم تُعرفِ البيضُ منهمُ ثيابهمُ منْ مثليها والعمائمُ^(١)
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازمُ^(٢)

تجمّع فيه كلُّ لسنٍ وأمةٍ فما تفهمُ الحدّاثَ إلاّ التراجيمُ
ويصف المتنبي المعركة التي احتدمت والتي هزم فيها العدو هزيمة نكراء
ويتحدث عن تداخل صفوف الأعداء بعضها في بعض نتيجة للفوضى التي
دبت بينهم واختلال نظامهم كما يشبه هامتهم المتناثرة على سفوح الجبل
بالدراهم التي تنثر فوق رأس العروس :

ضمتَ جناحيهم على القلبِ ضمةً تموتُ الخوافي تحتها والقوادمُ^(٣)
بضربِ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبُ وصارَ إلى اللّباتِ والنصرُ قادمُ^(٤)
نثرتهنَّ فوقَ الأحيدبِ كلّهُ كما نثرتُ فوقَ العروسِ الدراهمُ^(٥)

-
- (١) البيض : السيوف .
(٢) الخميس : الجيش العظيم . الجوزاء : نجمان معترضان في جوز السماء : أي وسطها .
(٣) يريد بالجناحين : ميمنة الجيش وميسرته : وهما جانبا العسكر . القوادم : هي الريش فوق الخوافي ، قيل انها عشر ريشات في مقدم جناح الطائر . الخوافي : ما تحت القوادم .
(٤) الهامات : الرؤوس . اللّبات : النحور .
(٥) الاحيدب : جبل الحدث .

ويستطرد المتنبي فيصف خيول سيف الدولة التي كانت تتبع المنهزمين من الأعداء في تلك الدُرى فتدوس وكُورَ العقبان التي فَرَحَتْ بكثرة عدد جثث القتلى من الروم وظنت فِرَاحُ العقبان أن خيل الأمير أمهاتها لسرعة عدوها وأن هذه الخيل كانت إذا زلقت في صعودها الجبال تمشي على بطونها مشي الحيات وفي ذلك يقول :

تدُوسُ بك الخيلُ الكورَ على الدِّرَا وقد كثرت حولَ الكورِ المطاعمُ^(١)
تظُنُّ فِرَاحُ الفتح أنك زُرْتَهَا بأُمَاتِهَا وهي العِتَاقُ الصلادِمُ^(٢)

ويسخر المتنبي من الدمستق سخرية لاذعة لأنه يقدم كل يوم ثم يفِرّ ، وهو أجهل من الحيوانات التي إذا شمّت ريح الأسد وقفت ولم تتقدم ، بينما هو لا يرعوي ولا يرتدع بأسر ابنه وأصهاره ، ويمضي منهزماً وهو يشكر أصحابه لأن السيوف اشتغلت بهم عنه ويسرّ الدمستق لأنه نجا بنفسه :

أفني كلَّ يومٍ ذا الدّمستق مقدّمٌ قفاهُ على الإقدامِ للوجهِ لائِمٌ^١
أُسْكِرُ رِيحَ اللَّيْثِ حَتَّى يَدُوقَهُ وقد عرفتُ رِيحَ اللَّيْثِ البَهِائِمِ^٢
وقد فجّعتُهُ بابنه وابنِ صهره وبالصَّهْرِ حملاتُ الأميرِ الغواشمِ^٣
مضى يشكرُ الأصحابِ في فوته الطَّبِي بما شغلتهَا هَامُهُمُ والمعاصمُ^(٢)
يُسَرُّ بما أعطاك لا عَن جَهَالَةٍ ولكن مغنوماً نجا منك غانِمٌ

ويصرح المتنبي بأن هذه الحرب ليست حرباً بين مَلَكيْن ولكنها حرب دينية بين الإسلام والشرك : فيقول :

-
- (١) الكور : موضع مبيت الطيور . الدرى : اعالي الجبال .
(٢) الفتح : جمع فتحاء : اناث العقبان . والفتح : لين المفاصل . العتاق : كرام الخيل . الصلادم : جمع صلدم : وهي الفرس الشديدة الصلبة .
(٣) الطبي : جمع ظبة : حد السيف . الهام : الرؤوس . المعاصم : جمع معصم : أطراف السواعد .

ولستَ مَلِيكاً هازماً لنصيرهِ . ولكنك التوحيد للشرِكِ هازِمٌ

وكان لهذه الموقعة العظيمة التي انتصر بها سيف الدولة على الروم انتصاراً ساحقاً صدى كبير في العالم الإسلامي آنذاك وتسابق شعراء الندوة السيفية في وصفها وتغنّى بها أبو فراس في رائيته (١) :

وحسبي بها يومَ الأحيدِبِ وقعةٌ على مثلِها في العزّ ثنى الخناصرُ
عدَلْنَا بها في قِسْمَةِ الموتِ بينهم ولل سيفِ حَكم في الكتيبةِ جائرُ
إذِ الشيخُ لا يَلْهُو ونقفورٌ مَجْحِرُ وفي القيدِ ألفُ كالليوثِ قساوِرُ
ولم يبقَ إلّا صهره وابنُ صهره وثورٌ بالباقيَن مَنْ هو نائِرُ

ووصف السري للرفاء هذا الانتصار العظيم وسماه الفتح الذي أعز الله به الإسلام وتحدث عن الفرحة الكبرى التي عمت ديار المسلمين لهذا النصر الكبير (٢) :

فَتَحَّ أعزَّ به الإسلامَ صاحبهُ وردَّ ثاقِبَ نورِ المُلْكِ ثاقبهُ
سارت به البُردُ منشوراً صحائفه على المنايرِ محموداً عواقبهُ
فكلَّ ثَغَرٍ اهْ ثَغَرٌ يضاحكُهُ وكلَّ أرضٍ بها ركبٌ يصاحبهُ
عاد الأميرُ به خُضرًا مكارمُهُ حُمراً صوارمهُ بيضاً مناقبهُ

ويصف ابن نباتة السعدي بطولة الأمير الحمداني في الحدث ويخاطب ملك الروم قائلاً (٣) :

ويُنْكِرُ يوماً بالأحيدِبِ كَذَبَتُ به البيضُ حَدَّ البيضِ وهو صدوق

(١) ديوان أبي فراس (٢ / ١٤٥) .

(٢) ديوان السري (١٧ - ١٨) .

(٣) ديوان ابن نباتة المخطوط (٣) .

به شَرِقَتْ من خشية الموت بالخصى صُدُورٌ وفارت بالقلوب حُلُوقُ

وفي قصيدة ثانية يتحدث عن هذه المعركة العظيمة فيقول :

وفي ظَهْرِ الأَحْيَدِ بِحَمَلَتِهِمْ خِفَافٌ سِوْفُهُ عَيْنًا ثَقِيلًا
تَأَلَّفَتْ الجُمَا جُمُ والهوادي كما تَتَأَلَّفُ الغُرُرُ الحُجُولا

وكانت آخر معركة وصفها المتنبي من معارك سيف الدولة مع الروم هي المعركة التي نشبت بينه وبين الروم في سنة ٣٤٥ هـ وكان سيف الدولة قد غزا بلاد الروم ووصل إلى بطن هِنَزيط^(١) وأخذ معه سفناً مملعة وأطوافاً عبَرَ عليها نهر «أرسناس»^(٢) وقصد مدينة «تل بطريق»^(٣) فأحرقها وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل^(٤) . وأسر عدداً من بطارقتهم وقادتهم وجنودهم وغنم غنيمة كبيرة تفوق الإحصاء .

وأنشد أبو الطيب في ذلك قصيدته^(٥) التي أولها :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشَّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعِلْيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ
وَلِرُبَّمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الْأَقْرَانِ
لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

(١) بوزن قنديل وبالزاي كما في معجم البلدان ، وذكر القاموس أنها هنريط بالراء ... منصوصاً عليها .

(٢) أرسناس : بالفتح ثم السكون وفتح السين المهملة ونون والـ و سين أخرى : اسم نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه : معجم البلدان (٢٠٧ / ١) .

(٣) تل بطريق : يقع على الضفة الغربية للفرات وذكره ياقوت فقال : بلد كان بأرض الروم في الثغور خربه سيف الدولة وبينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ : معجم البلدان ٢ : ٤٠ .

(٤) نخبة تاريخية وأدبية (١١٨ / ١١٥) .

(٥) ديوان المتنبي (٣٠٦ / ٤) .

ونلاحظ أن الشاعر استهل قصيدته بالحكمة وفضلَّ العقل على شجاعة الأبطال والرأي على القوة أما إذا اجتمع العقل والشجاعة لنفس تأبى الذل والضميم ولا تلين قناتها للأعداء فإنها تبلغ من العلا أعلى المبالغ . ويفضل الشاعر العقل الذي لولاه لفضلت بعض الحيوانات على الإنسان .

ويصف المتنبي خيل الأمير - وهو كلف بوصفها كما لاحظنا من خلال دراسة شعره - فيحدث بأنها خيل كريمة أصيلة مؤدبة بآداب الحرب إذا خلَّيت لم تبرح مكانها فكأنها مربوطة . ولشدة النقع المتطاير لا تبصر هذه الخيل بعيونها وإنما إذا سمعت شيئاً أرهفت آذانها فكأنها تبصر بها وفي هذه المعاني يقول :

قَادَ الْحِيَادَ إِلَى الطَّعَانِ وَلَمْ يَقْدُ إِلَّا إِلَى الْعَادَاتِ وَالْأُوطَانِ
كُلَّ ابْنٍ سَابِقَةٍ يَغِيرُ بِحُسْنِهِ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ عَلَى الْأَحْزَانِ
إِنْ خَلَّيْتُ رُبَطْتُ بِآدَابِ الْوَغَى فِدَاؤُهَا يُغْنِي عَنِ الْأَرْسَانِ
فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعُيُونَ غُبَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالْآذَانِ

ويصف المتنبي براعة الخيول في خوض مياه النهر وعلى متنها الكماة الأبطال من جند سيف الدولة وعمائهم منتشرة في الهواء كما يصف وثب الخيل في نهر « أرسناس » البارد الماء ولقد عبرت هذه الخيول النهر وهو كالفضة فلما نشبت المعركة وكثر القتل من الروم جرت فيه دماءهم فعادت الخيل ووقد أصبح النهر أحمر كالذهب فيقول :

حَتَّى عَبَرْنَ بِأَرْسَنَاسَ سَوَابِحًا يَنْشُرْنَ فِيهِ عَمَائِمَ الْفَرَسَانِ
يَقْمُصْنَ فِي مِثْلِ الْمَدَى مِنْ بَارِدٍ يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنًا كَالْخَصِيَانِ^(١)

(١) يقمصن : يشبن .

والماءُ بينَ عَجَاجَتَيْنِ مَخْلُصٍ تَتَفَرَّقَانِ بِهِ وَتَلْتَقِيَانِ
رَكَضَ الْأَمِيرُ وَكَالَلَجَيْنِ حَبَابَهُ وَثْنِي الْأَعِنَّةَ وَهُوَ كَالْعَقِيَانِ (١)

ويفيض المنتهي من درر شعره فيصف السفن التي اجتاز بها جيش سيف
الدولة النهر والتي ملأته وهي عقم لا تلد وألوانها سود مطليّة بالقار وشبهها
بالخيول العادية وهي تحمل النساء التي سببتها الفوارس وكأنهن غزلان والسفن
مرايض لها فيقول :

فَتَلَّ الْحِبَالُ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنْ الصَّلْبَانِ
وَحَشَاهُ عَادِيَّةٌ بَغَيْرِ قَوَائِمٍ عَقُفُمُ الْبَطُونِ حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ
تَأْتِي بِمَا سَبَّتِ الْخِيُولُ كَأَنَّهَا تَحْتَ الْحِسَانِ مَرَابِضُ الْغِزْلَانِ

ويصف المنتهي هول المعركة التي نشبت والتي هُزِمَ فيها الروم شر هزيمة
ويشيد بجند الأمير الذين تراههم فوق خيولهم فتحسبهم عقباناً لحفتهم وسرعتهم
وهم مجاهدون في سبيل الله ومن استشهد منهم بالقتل صار حياً مرزوقاً
عند الله . ويتحدث عن الروم الذين فروا منهزمين وهم يضربون بالرماح
والسيوف حتى إن من هرب ونجا منهم عدّة نفسه مدركاً أمّله . وفي ذلك يقول :

نَظَرُوا إِلَى زُبَرِ الْحَدِيدِ كَأَنَّمَا يَصْعَدُونَ بَيْنَ مَنَاكِبِ الْعَقْبَانِ (٢)
وَفَوَارِسٍ يُحْيِي الْحِمَامُ نَفُوسَهَا فَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَوَانِ
مَا زِلْتُ تَضْرِبُهُمْ دِرَاكًا فِي الذُّرَى ضَرْبًا كَأَنَّ السَّيْفَ فِيهِ اثْنَانِ (٣)
خَصَّ الْجَمَاجِمَ وَالْوُجُوهَ كَأَنَّمَا جَاءَتْ لِيكَ جَسُومُهُمْ بِأَمَانٍ

(١) اللجين : الفضة . الحباب : الفقاقيع التي تعلق الماء . العقيان : الذهب .

(٢) الزبر : جمع زبرة : وهي القطعة من الحديد والمراد : السيوف .
العقبان : جمع عقاب الطائر المعروف .

(٣) الدراك : المتتابعة . الذرى : جمع ذروة وهي أعلى كل شيء .

فَرَمَوْا بِمَا يَرْمُونَ عَنْهُ وَأَدْبَرُوا يَطْنُونَ كُلَّ حَنِيَّةٍ مِرْنَانٍ (١)
يَغْشَاهُمْ مَطَرُ السَّحَابِ مَفْصَلًا بِمُثَقِّفٍ وَمُهْتَدٍ وَسِنَانٍ (٢)
وَإِذَا الرَّمَا حُ شَغَلْنَ مُهْجَةً ثَائِرٍ شَغَلَتْهُ مَهْجَتُهُ عَنِ الْإِخْوَانِ (٣)

ويعود المتنبي فيذكر هذه الواقعة في قصيدة ثانية له وهي آخر قصيدة قالها في بلاط سيف الدولة قبل رحيله من حلب صوب مصر وأولها :

عُقْبِي الْيَمِينَ عَلَى عُقْبِي الْوَعْيِ نَدَمٌ مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ
وهي قصيدة رائعة لا تقل جودةً وحسناً عن قصيدته التي عرضنا لها
لها بالتحليل .

ولقد تحدث أبو فراس عن هذه الواقعة بقصيدته الرائية فقال (٤) :

وَشَقَّ إِلَى ثَغْرِ الدِّمَسْتَقِ جَيْشُهُ بِأَرْضِ سِلَامٍ وَالْقَنَا مُتَشَاوِرُ
سَقَى أَرْسَنَاسًا مِثْلَهُ مِنْ دُمَائِهِمْ عَشِيَّةً غَصَّتْ بِالْقُلُوبِ الْحَنَاجِرُ
وَبَاتَ يُبْدِرُ الرَّأْيَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَذُو الْحَزْمِ نَاهِيَهُ وَذُو الْعِزْمِ أَمْرُ

ويصف السري الرفاء هذه المعركة العظيمة ويتحدث عن بطولة الأمير
وهزيمته للروم ويصف خيله الأصيلة السريعة النشيطة التي دهست الروم
وألقت بآرسناس فحطمتهم وألحقت الخزي والعار بهم (٥) فيقول :

وَأَبْرَقَ مَا بَيْنَ الدَّرُوبِ سَحَابُهُ فَصَابَ وَلَكِنْ صُوبَ بَارِقَةَ الدَّمِ

-
- (١) الحنية : القوس . المرنان : التي يسمع لها رنين .
(٢) مفصلاً : من تفصيل القلادة وهو أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة .
السنان : الزج الذي أسفل الرمح .
(٣) المهجة : الروح . الثائر : طالب الدم .
(٤) ديوان أبي فراس (١١٣) .
(٥) ديوان السري (٢٥٣) .

وإنْ ضُرِبَتْ دُونَ الْحَايِجِ خِيَامُهُ فَمِنْ خُلِقِهِ لِلرَّعْبِ جَيْشٌ خَيَّمُ
وَمُعْتَصِمٌ بِالشَّرْفِيَّةِ لَمْ يَكُنْ لَيْسَلَمْ مِنْهُ فِي ذُرَا الطُّودِ أَعْصَمُ
سَنَابِكُهَا مِنْ تَحْتِهَا تَقَرَّعُ الصَّعَا وَرَايَاتُهَا مِنْ فَوْقِهَا تَتَرَنَّمُ
تُغَيِّرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالنَّجْمُ غَائِرُ وَتَسْرِي بِهِ وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ مَظْلِمُ
أَلَّتْ بِشَطِّي أَرْسَنَاسَ وَلَلْقَنَا شِطَاطٌ فَأَبَتْ عَنْهُ وَهُوَ مُحَطَّمُ

وهكذا نلاحظ أن شعر الجهاد قد ترعرع ونما في عهد سيف الدولة وأن مجاهدة الأمير الحمداني المتواصلة للروم ألهمت الشعراء غرر القصائد وأوحت إليهم دُرر المعاني ولقد كان في طليعة هؤلاء المتنبي الذي خاض الحروب المقدسة مع سيف الدولة فاقتحم نيرانها وكابد أهوالها ورأى ببصره وبصيرته وسائلها ودخائلها وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه إلا الخبير المدرك. فلذلك كان شعره الحربي أقوى في عباراته ومعانيه وأخيلته وبدائع فنونه. وشعر الجهاد له أصول وجذور في العربية قبل المتنبي كما هو الحال عند أبي تمام والبحتري. ولكن المتنبي هو الذي جعل هذا اللون من الشعر فناً قائماً بذاته فلقد وقف عيون شعره على سيف الدولة وجعل روائع حديثه رهينة بوصف الحروب العربية البيزنطية التي نهض بها سيف الدولة طوال حكمه على خير الصور وأروع الرسوم.

وصف الطبيعة

يُعدّ الوصف أشملَ الأغراض الشعرية التي عُرِفَت في الأدب وهو ليس بالفن الشعري المستقل فحسب بل هو عماد أكثر الألوان الشعرية من هجاء ورناء وغزل وفخر . ولذلك صدق ابن رشيق حين قال « الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف » ^(١) وأصل الوصف في اللغة الكشف والإظهار يقال وصّف الثوبُ الجسم إذا تجلّى عليه ولم يستره ^(٢) .

ولهذا يمكن القول بأن كلّ ما يقع تحت الحواسّ يمكن وصفه . بل إن الأفكار غير المحسوسة وأحوال النفس يمكن الإنسان أن يصفها .

والمراد بالوصف حين يعد غرضاً شعرياً هو الوصف المجرد لما يشاهده الشاعر أو يحسه من الظواهر الطبيعية والموجودات والمعاني الكونية النفسية .

وما دام للوصف هذه الدائرة المتسعة الشاملة فإن من الطبيعي أن يكون من أول أبواب الشعر نشأة . ولكن من الطبيعي أيضاً أن يتغير تبعاً لتغير البيئات والمجتمعات والمحسوسات وغير المحسوسات من عصر لعصر .

والوصف عند شعراء الندوة السيفية له آفاق رحبة ومذاهب متعددة ومن

(١) العمدة (٢ / ٢٩٤) .

(٢) لسان العرب : مادة وصف .

أهمها وصف الطبيعة فلقد وصفوا الطبيعة وأبدعوا فيها حتى أصبحوا أساتذة في هذا الفن .

ولقد فتنوا بجمال الطبيعة فصوروها أكمل تصوير ، صوّروا الرياض والبساتين والأزهار والأثمار والحدائق والرقراقة ووصفوا لأول مرة في تاريخ الشعر العربي تساقط الثلج .

كذلك استطاعوا بقصائدهم أن يحمّلوا الطبيعة فوق جمالها ، وأن يصوروها في صورة بديعة مشرقة ، وأن ينطلقوا على سجيّتهم إلى أقصى الآماد ، ولهذا أتوا بالمعنى البارع والصورة الفاتنة وبعثوا في موجودات الطبيعة حياة قوية ونشاطاً عظيماً .

والموضوعات التي سنطرقها في هذا البحث هي الموضوعات الجديدة المستحدثة في شعر الطبيعة والتي غنى بها شعراء سيف الدولة وأكثرها من ذكرها في أشعارهم كالروضيات والأنهار والمياه والثلوج والفصول .

ولقد نهض شعر وصف الطبيعة في رحاب سيف الدولة نهضة عظيمة وتبدو العناية بهذا اللون من الشعر في شعر شعراء العصر جميعاً ولكن أشهر هؤلاء الشعراء هم الصنوبري وكشاجم والسري الرفاء والبيغاء . ويعد الصنوبري إمام هذه المدرسة وأول شاعر للطبيعة في العربية^(٢) . ولقد مضى شعراء عصره ممن كانوا حوله ومن خلفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده بل أيضاً في المغرب والأندلس يسيرون على هديه حتى ضرب المثل بروضياته ومن الحق أن ابن الرومي كان مشغولاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ولكنه لم يعيش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورد والرياحين والأزهار ويتعهدا تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري^(٢) الذي صدق حين قال :

(١) الحضارة الإسلامية : آدم متز (٤٣٠) .
(٢) العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف (٣٦٣) .

أنا الذي شعرُهُ وشيُّ الرياضِ فلي في كلِّ أرضٍ عدتُ من وشيه لمع^(١)

الروضيات :

الشاعر فتان يتملاً من الجمال حيث كان وتنفذُ بصيرته إلى أعماق الكائنات لتلمح مواطن الحسن فيها وقد تغفل العين العادية عن إدراك ما تدركه عيناه فقد يقف مبهوراً أمام نبته في صحراء أو جدول ماء أو سروة باسقة أو نرجسة ناعسة أو روضة ساحرة . والديار التي عاش فيها شعراء الندوة السيفية ذوات طبيعة خيرة جميلة حباها الله بالحسن والجمال ومنحها المناظر الخلابة ونفحها بالألوان الفاتنة والرسوم الخملية ، والبهجة الباسمة . فهام الشعراء بهذه الطبيعة التي اختصها الله بالرونق والرواء وكلفوا بجذائقيها الغنّ ورياضها الفيج ومحضوها أرق مشاعرهم وصادق أحاسيسهم وانفعالهم .

وهذا شاعرنا الصنوبري يغتلي افتتانه بالروض إلى درجة يحيطه فيها بهالة من القداسة والتبجيل ويعتده معها حرماً موقوفاً على الكرام ؛ ولو استطاع أن يكون قيماً عليه لمنع أن تدنسه أقدام اللثام^(٢) . . . فيقول :

يا ريمُ قومي الآنَ ويحكِ فانظُرِي ما للربا قد أظهرت إعجابها^(٣)
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآنَ قد كشفَ الربيعُ حجابها
وردُّ بدا يحكي الحدودَ ونرجسُ يحكي العيونَ إذا رأت أحبابها
وكأنَّ خرّمه البديعَ وقد بدا روسُ الطواوسِ إذ تُديرُ رقابها^(٤)
والسروُ تحسبه العيونُ غوانياً قد شمّرت عن سوقها أثوابها^(٥)

(١) ديوان الصنوبري (٣١٧) .

(٢) ديوان الصنوبري (٤٥٤) .

(٣) أعجابها : جمع عجب .

(٤) الخرم : زهر بنفسجي زاه .

(٥) السوق : جمع ساق .

لو كنتُ أملكُ للرياضِ صيانةً يوماً لما وطىءَ اللثامُ ترابها

فهو يوقظ صاحبه لترى الروضة الخلابة وقد حسر الربيع نقابها فهبت
خدودها وعيونها الرآنية ورؤوسها الزاهية ، وكأنما السرو غاياتٌ أقبلتُ
مشمرةً عن سيقانها تُريد الرقص كذلك يعد الروض مقدساً ولو كان قادراً
لمنع اللثام من أن تطأ ترابه أقدامهم .

وليست الرياضُ في نظر الصنوبري مخلوقات جامدة فهو يضيء عليها
من خياله ما يجسمها ويشخصها ويغدقُ عليها الحياة فيجعلها تمور بالحركة
والانفعالات والعواطف ، وفي ذلك يقول :

معاهدُ بل مآلفُ باقياتُ بأكرمِ معهدينِ ومآلفينِ
يُضاحكُها الفُراتُ بكلِّ فجٍّ فتضحكُ عن نُضارٍ أو لجينِ
كأنَّ الأرضَ من حُمرٍ وصفٍ عروسُ تجتلي في حُلَّتَيْنِ
كأنَّ عِناقَ نهريْ دِيرِ زكى إذا اعتسقا عناقُ متيمينِ

ونود أن نقف هنا لكي نناقش رأي الدكتور درويش الجندي الذي
يقول : إن وصف الطبيعة في الشعر السيفي نهض ولكنه مع ذلك بقي سائراً
في اتجاه الوصف الطبيعي للشعر العربي حسيّاً خالياً - غالباً - من الروح
والاندماج في الطبيعة ذلك الاندماج الذي نلاحظه في الشعر الغربي . فالطبيعة
في أدبنا - على حد رأيي - لذة الحِسّ لا لذة الروح كما هي عند أدباء
الفرَنجة الذين اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم ومنحوها من الحب ما يمنحون
الأحبة والأصدقاء^(١) . ولعلنا نجد في الأبيات السابقة الرّدّ المفحم على هذا
التجني على شعر الطبيعة لدى شعراء الندوة السيفية . فواضح في الأبيات صلةُ

(١) الشعر في ظل سيف الدولة (٢٢٦ - ٢٢٧) .

الشاعر بالروض وما أثاره في نفسه من استجابة ذوقية بعيدة عن النمط التقليدي،
ولائح بروزُ التجاوب الوجداني بين الشاعر ومظاهر الروض الخلاّبة .

ولنستمع معاً إلى حديث الصنوبري عن الورد الذي وهبته نفسه ووجدانه
ووصله بقلبه وإحساسه ففي ذلك الردّ المقنع والدليلُ القاطع على اندماج
الشاعر في الطبيعة وغلبة لذة الروح على شعره بالإضافة للذة الحس^(١) فقال :

وهَبْتُ للوردِ نفسي فطَبْتُ بالنفسِ نفساً
من أبيضٍ فاقَ نوعاً وأحمرَ راقَ جنساً
كأنما غَمَسَتْهُ في العُصْفُرِ اليدُ غمساً
ما كان لما تبدّى إلاَّ عَرُوساً وعِرْساً
وصلتُهُ وصلَ مثلي لحظاً وشمّاً ولمساً
ولو يُمَسُّ بقلْبٍ أفناهُ قلبي مَسّاً

ونحن نرى أن شعر وصف الطبيعة عند الشعراء الحمدانيين كان مليئاً
بالروح وأن الشعراء اتصلوا بالطبيعة بروحهم ووجدانهم وتفاعلوا معها
وامتزجوا بها وأبدعوا شعراً وجدانياً عظيماً .

ولقد تعلق الصنوبري بالروض وهام به ونظر إليه من خلال عواطفه
ففي الرياض شبه من الأحباء ولهذا كان يرى في كل صورة من صور الروض
لمحة من حبيب تشده إليه وتزيد تعلقه به فالغصن والشقيق والأقحوان والرجس
يراها قدوداً تتصف باللين والتأود أو خدوداً يجمّل حمّرتها سوادُ الخال .
وفي ذلك يقول :

شَبَهُ الرّوضِ بالحبايبِ قدْ زادَ المُحِبِّينَ في محبَّتِها

(١) ديوان الصنوبري (٢٠٠) .

كم من قدود هناك من قُضِبَ تسيل من لينها ونِعِمَّتِها
 كم وجنة خالها يلوح لنا سواده في صفاء حمرتها
 وكم ثنايا تَسْبِي بنكهتها وكم عيون تُصْبِي بلحظتها
 تُسَارِقُ العَمَزَ غمزَ خائفة رقيبها من خفاء نظرتها

وكان الصنوبري يتعلق بحلب تعلقاً عظيماً وارتباطه بها وثيق الصلة بحبه
 للطبيعة ورياضها فأحب جبلها « جوشن » ورياضه :

وللزهر من حلب منزل تَثَابُ العيونُ على حجه
 أَعِدْ نحو جوشنه نظرة إلى سمته وإلى بُرجه
 لترتاض نفسك من روضه ويمرح طرفك في مرجه

ولا يقل عن هذه الأبيات براعة وفتنة وصفه لرياض نهرها قويق
 حيث يقول :

رياض قويق لا تزال مَرُوضَةً يجاورُ فيها أحمرَ اللونِ أبيضه
 يُعارِضُنَا كَأَفْوَهِ كُلِّ شَارِقٍ إذا ما انصبا مرت به متعرّضة
 إذا ما طفا النيلوفر الغض فوقه مفتحة أجفانه أو مغمضة
 حَسِبْتَ نجوماً فوقهنّ تتابعت فرادى ومثنى في سماءٍ مفضضة^(١)

وكشاجم — صديق الصنوبري الذي سار في طريقه وكلف بالزهو وهام
 به . وتغنى بالرياض غناءً ينطق بالحُب العميق والشعور الصادق . يتغزل
 برياض نهر قويق وما حوته من شقيق أحمر وأقحوان كاللؤلؤ وnergس غض
 وبهار منضد ونيلوفر متوقد^(٢) :

(١) ديوان الصنوبري (٢٥٦) .

(٢) ديوان كشاجم (٤٨ -- ٤٩) .

لِلنَّهْرِ نَهْرٍ قُويِّقٍ عِنْدِي يَدٌ لَيْسَ تُجَحِّدُ
وَالْأَرْضُ تُكْسَى بِزَهْرِ الرَّيَّانِ يَاضُ وَشَيْئاً مُعَمَّدُ
كَأَنَّ خُرْدَ عَيْنٍ بِهَا يَضَاحُكُنْ خُرْدُ
وَحُمْرَةَ فِي شَقِيقٍ وَخُضْرَةَ فِي زَبَرْجَدِ
وَأَفْحُوَانٍ كَعَقْدٍ مِنْ لَوْلُو قَدْ تَبَدَّدُ
وَالْتَرَجِسُ الْغَضُّ يَرْنُو إِلَى الْبَهَارِ الْمُنْضَدِ
كَمَا أَشَارَ حَبِيبٌ إِلَى حَبِيبٍ بِمَوْعِدِ

ونلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر قد جعل اهتمامه في الصنعة والتشبيهات حتى إنه بعد بنا عن الشذى والعبير ودفعنا عن الصبا والرحيق إلى مجرد ذكر الشقيق والأفحوان والترجس والبحار ذكراً سريعاً فغنى بالتشبيهات عن جوهر الموضوع نفسه .

على أن الشاعر إذا قصر في ناحية أو شابث فنه فيها شائبة ، فليس معنى هذا أنه متخلف أو مقصر في شعره كله .

فكشاجم له من الصور الطبيعية ما يتبع فيه الموصوف ويجلّيه تجليةً إنسانية ويصوره ذا عواطف وأحاسيس :

ولقد وصف رياض حلب أروع وصف وأحفله بالصور والرسوم (١) حين قال :

أَرْتَكَّ يَدُ الْغَيْثِ آثَارَهَا وَأَعْلَنْتِ الْأَرْضُ أَسْرَارَهَا
فَمَا تَقَعُّ الْعَيْنُ إِلَّا عَلَى رِيَاضٍ تَصْنَفُ نُوَارَهَا

(١) المصدر نفسه (٤٨) . الإعلاق الخطيرة : ابن شداد (١٥٧/١ - ١٥٨) .

يُفَتِّحُ فِيهَا نَسِيمُ الصَّبَا جَنَاهَا فِيهِنَّكَ أُسْتَارُهَا
وَيُدْنِي إِلَى بَعْضِهَا بَعْضُهَا كَضْمِ الْأَحْبَةِ زُورَها
تَغْضُ لِرَجْسِهَا أَغْيُنًا وَطَوْرًا تُحَدِّقُ أَبْصَارُهَا
إِذَا مُزْنَةٌ سَكَبَتْ مَاءُهَا عَلَى بُقْعَةٍ أَشْعَلَتْ نَارَها
وَمَا أُمْتَعَتْ جَارَها بِأَدَّةٍ كَمَا أُمْتَعَتْ حَلَبٌ جَارَها
هِيَ الْخُلْدُ تَجْمَعُ مَا تَشْتَهِي فَزُرْها فَطُوبَى لِمَنْ زَارَها

إنه يذكر الغيث الهاطل الذي يكسوها بالأزهار المتعاقبة والتي يقبل بعضها بعضاً . وليس هناك من مدينة تحظى بجمال كجمال حلب فهي الخلدُ تجمعُ الحسنَ والجمال .

وسار الشاعر السري الرفاء في طريق كشاجم ونهَجَ منهجهُ وأجاد في الوصف إجادَةً بارعة جعلته يعدّ من أكبر الوصّافين في عصره وهو أحسن شعره وألطفه فهو وصّاف بارع يسجّل في شعره ما يشاهده من مناظر تؤثر فيه ورسّامٌ فنان يصوّر بريشته ما يحسّه في أعماق نفسه ^(١) وهو خِلّ الشربِ وصديقُ الرّوض يعودُه دائماً ويتغنى بمحاسنه ويطرب للقائه :

وَبِإِسَاطِ رِيحَانٍ كَمَاءِ زَبَرْجَدٍ عِيشَتْ بِصَفْحَتِهِ الْجَنُوبُ فَأَرْعَدَا
يَسْتَأْقُهُ الشَّرْبُ الْكِرَامُ فَكَلَّمَا مَرِضَ النَّسِيمِ سَعَوْا إِلَيْهِ عُوْدَا
ومن بديع وصفه للروض قوله ^(٢) :

أَعَادَ الْحَيَا سَكْرَ الشَّبَابِ وَقَدْ صَحَا وَجَدَّ دَ مِنْ عَهْدِ الرَّبِيعِ الَّذِي أُنْعِمَى
وَبَاتَ زِنَادُ الْبَرْقِ يَقْدَحُ نَارَهُ عَلَى الْآسِ حَتَّى أَهْتَزَّ فِيهِ وَقَدْ حَا

(١) الحضارة الإسلامية : آدم متز (٤٧٠) .

(٢) ديوان السري الرفاء (٧٣) .

كأن حمامَ الروض نشوان كلما ترنّمَ في أغصانه وترجّحاً
ولاذ نسيمُ الرّوضِ من طول سيره حسيّراً بأطرافِ الغُصونِ مطلقاً
فباشَرَ وردَ الأفحوانِ مُشرّفاً وصافحَ وردَ الباقلاءِ مجنّحاً
وحلّلَ من أزواره النّورِ فاعتدى كلّفِظَ حبيبٍ همّ أن يتفصّحاً
وشقّ على لونِ الحدودِ شقائقاً رائهُ عُيون السّرب أبهى وأصلحاً

وهو يصف الغيث الذي أعاد الشباب للروض وجدّد عهد الربيع به والبرق اللامع على وجنات الآس والحمام النشوان المغرّد ونسيم الرّوض العليل الذي يقبل الأفحوان ويعانق الباقلاء والأزهار ، وهو لا ريب قد استخدم الفن البديعي أتم استخدام ، لكنّ هذا الفن لا يثقل بل يخفّ حتى لا يشعر القارئ إلاّ بأن الشاعر دقيق الحس حسن البيان .

الزّهريّات :

تعشق شعراء الندوة السيفية الأزهار وهاموا بها وأنشدوا القصائد الرائعة الشاملة لأصنافها وألوانها ، وأتوا بالعجب العُجاب ، وخصّوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسّعوا في تصويرها .

ولعل أعظم الشعراء في هذا الباب هو الصنوبري فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض والزهر وديوانه روض تُمائل أغصانه بالثمر وتهتز نباتاته بالنور والزهر .

ولقد فتن الصنوبري بالطبيعة وأولّع بالروض وتعشق الأزهار . فقال^(١) :
زَهْرُ الرِّياضِ إِذا هِيَ ابْتَسَمَتْ تدعو فيُسرعُ نحوها الخلقُ

(١) الحضارة الإسلامية (١ / ٤٧٣) .

فَتَنْظِلْ تَنْظِقُ وَهِيَ سَاكِتَةٌ إِنَّ الرِّبَاضَ سَكُوتُهَا نُطْقُ

ووصف النرجس والورد وأقام بينهما معارك على نحو يزيد في تصوير
فتنتها (١) فقال :

زَعَمَ الْوَرْدُ أَنَّهُ هُوَ أَبَى مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَارِ وَالرَّيْحَانِ
أَيُّمَا أَحْسَنُ : التَّوَدَّدُ أَمْ مُقْدُ لَمَةُ رِيْمٍ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ (٢)
أَمْ فَمَاذَا يَرْجُو بِحَمْرَتِهِ الْوَرْدُ دُ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَيْنَانِ
فَزَهَا الْوَرْدُ ثُمَّ قَالَ مَجِيباً بِقِيَّاسٍ مُسْتَحْسِنٍ وَبَيَّانٍ
إِنَّ وَرْدَ الْخُدُودِ أَحْسَنُ مِنْ عَدَايْنِ بِهَا صُفْرَةٌ مِنَ الْبِرَقَانِ (٣)

ونلاحظ أن الشاعر كان يفضل الورد ضمناً وإن بدا في موقف الحكم
المحايد . وأقام الشاعر معركة أخرى جمع فيها شتى أنواع الأزهار وحاول
فيها أن ينتصر للنرجس وفيها يقول (٤) :

خَجَلِ الْوَرْدُ حِينَ لَاحَظَهُ النَّرُّ جَسُّ مِنْ حُسْنِهِ وَغَارَ الْبَهَارُ (٥)
فَعَلَّتْ ذَاكَ حُمْرَةً وَعَلَّتْ ذَا حَيَرَةً وَاعْتَرَى الْبَهَارُ اصْفِرَارُ
وَعَنَدَا الْأَقْحُوَانُ يَضْحَكُ عَجَباً عَنْ ثَنَائَا لثَائِهْنٍ نَضَارُ (٦)
عِنْدَهَا أَبْرَزُ الشَّقِيقُ خُدُوداً صَارَ فِيهَا مِنْ لَطْمَةِ آثَارُ (٧)

(١) فوات الوفيات ج ١ (١١١) .

(٢) الرئم والريم : الطبي الخالص البياض .

(٣) اليرقان : آفة من آفات الزرع ، وقيل دود يكون في الزرع وهو ايضا
مرض يصيب الناس .

(٤) ديوان الصنوبري (٧٨) .

(٥) البهار : نبت اصفر طيب الرائحة .

(٦) الاقحوان : زهر ابيض في وسطه اصفرار واوراقه مفلجة ولذلك
يشبهونه بالاسنان .

(٧) الشقيق : ورد كبير احمر .

وأَصْرَّ السَّقَامُ بِالْيَاسَمِينِ الـ غَضَّ حَتَّى أَذَابَهُ الْإِضْرَارُ

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة وكل منها يبوء بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة.

ويعد الصنوبري النرجس ملكاً للأزهار يقول في ذلك (١) :

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيُونِ النَّرْجِسِ أَمْ مِنْ تُلَاحِظُهُنَّ وَسْطَ الْمَجْلِسِ
دُرُّرٌ تَشَقُّقُ عَنْ يَوَاقِيتٍ عَلَى قُضْبِ الزَّمَرْدِ فَوْقَ بُسْطِ السِّنْدِسِ
أَجْفَانُ كَافُورٍ حَقَّقْنَ بِأَعْيُنٍ مِنْ زَعْفَرَانٍ نَاعِمَاتِ الْمَلْسِ
فَكَأَنَّهَا أَقْمَارُ لَيْلٍ أَحْدَقَتْ بِشَمُوسٍ أَفَقٍ فَوْقَ غَصْنِ أَمْلَسِ

وترنم الواواء الدهشقي بجمال النرجس وقوامه المعتدل ومآقيه الناعسة فقال (٢) :

وَنَرْجِسٍ لِلنَّسِيمِ مُعْتَنِقٍ يَسْهَرُ طَبَعًا وَمَا بِهِ أَرْقُ
كَأَنَّهُ وَالْقَوَامُ مُعْتَدِلٌ وَفِي الْمَآقِي مِنْ عَقْدِهِ عَبَقُ
أَجْفَانُ دُرٍّ عَلَى ذُرَى قُضْبٍ تَقْطِرُ مَسْكَاً وَمَا بِهَا عَرَقُ

ومحمد بن هاشم الخالدي من الشعراء الذين فتنوا بشقائق النعمان وشبهها بالياقوت والحدود الأرجوانية (٣) .

وَصُنْعُ شَقَائِقِ النَّعْمَانِ يَحْيِي يَوَاقِيتًا نَظْمُنَ عَلَى اقْتِرَانِ
وَأَحْيَانًا تَشْبِهُهَا خُدُوداً كَسَتْهَا الرِّيحُ ثُوباً أَرْجَوَانِي

(١) فوات الوفيات : الكتبي (١ / ٦١) ، طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(٢) ديوان الواواء المخطوط (٥٥) .

(٣) فوات الوفيات : الكتبي (٢ / ٢٧١) .

شقائقُ مثلُ أقداحٍ ملاءِ وخشخاشٍ كفارِغَةٍ القناني
ولما غازلتها الريح خِلنا بها جيشيَ وغى يتقاتلانِ
تخالُ به تُغوراً باسماتٍ إذا ما افترّ نورُ الأتحوانِ

وصور كشاجم شقائق النعمان تصويراً جميلاً وشبّها بشعلة نار متقدة
أو مطرفٍ أحمر لأمير في محفل كبير ^(١) فقال :

وإذا ما بدا الشقائقُ فيها خالهُ الناظرون شُعلةَ نارٍ
أو كما نُشِرتْ مطارفُ حمُرٍ لأميرٍ في محفلٍ جرّارٍ

ومن أزهار حلب الرائعة الجمال زهرةُ البنفسج التي كلف بها شعراء
حلب في عصر سيف الدولة فوصفها الزاهي فقال ^(٢) :

ولازورديةَ أوفتَ بزرقَتها بينَ الرياضِ على حميرِ اليواقيتِ
كأنها فوقَ قاماتٍ ضعفتُ بها أوائلَ النارِ في أطرافِ كبريتِ

ويصف الوأواء البنفسج فيشبّه بالنار عند إيقادها فيقول ^(٣) :

وبدا البنفسجُ لي فقلتُ لخاطري في وصفه كالنارِ في إيقادِها
حكّتِ الشكوكُ بخدّها أوراقه وحكى لذي التشبيهِ صبغَ حدادها
وبدتْ بزرقَة بعضه خمريةً فكأنّها في اللّونِ لونُ فوادِها

وكما وصفوا الأزهار وصفوا الثمار التي هي من نتاج الزهر والشجر

(١) ديوان كشاجم (١٤٩) .

(٢) المصدر نفسه (٣٧٢ / ٢) .

(٣) ديوان الوأواء المخطوط (٥٧) .

وحظيت الثمار في جمال منظرها وبديع مشهدها وطيب رائحتها بمكانة مرموقة في الشعر السيفي ولدى شعرائه .

وكان الصنوبري والسري وكشاجم أكثرهم وصفاً لها وتصويراً لروعته .

والصنوبري يصف الثمار على نحو ما يصف الزهر مجلياً لمعاني الحسن الطبّعي ، غير متأثر بنداء المعدة كما صنع ابن الرومي . . . قال يصف التفاح وينعته بصديق الأرواح ويشبه لونه الأحمر بلون خدود الغيد الحسان (١) :

فَتَنَاوَلْتُ مِنْهُ صَادِقَةَ الرِّيحِ حِجْرٌ تَسْمَى صَدِيقَةَ الْأَرْوَاحِ
وَشَحَّتْهَا يَدَاهُ مِنْ خَالِصِ التَّبِّ رِجْلٌ بِسَطْرِ يَحُولُ حَوْلَ الْوِشَاحِ
كُتِبَتْ صِبْغَةَ الْمَلَاخَةِ لَمَّا صُبِغَتْ صِبْغَةَ الْخُدُودِ الْمِلَاحِ

ويصف السّفَرَجَل ويشبّهه بالحبيب حسناً وجمالاً ويشبه لونه بلون الذهب الصافي فيقول (٢) :

لَكَ فِي السّفَرَجَلِ مَنْظَرٌ تَحْظِي بِهِ وَتَهْوِزُ مِنْهُ بِشَمَّةٍ وَمَذَاقِهِ
هُوَ كَالْحَبِيبِ سَعِدْتَ مِنْهُ لِحُسْنِهِ مَتَأَمَّلًا وَبِلِثْمِهِ وَعِنَاقِهِ
يُحْكِي لَنَا الذَّهَبَ الْمَصْفَى لَوْنُهُ وَتَزِيدُ بِهِجَّتُهُ عَلَى إِشْرَاقِهِ
فَالشَّطْرُ مِنْ أَعْلَاهُ يُحْكِي شَكْلُهُ تُدْثِي الْكَعَابِ إِلَى مَدَارِ نَظَاقِهِ

وقال يصف الموز ويشبّهه وهو بين أحضان أوراقه الخضر بمخازن من ذهب أصفر اُفْتُتْ بأردية خضر (٣) :

(١) ديوان الصنوبري (٤٦٨) .

(٢) المصدر نفسه (٤٨٣) .

(٣) ديوان الصنوبري (٤٩) .

كَأَنَّمَا الْمُؤَزُّ الَّذِي قَدْ بَسَدَا لِلْعَيْنِ فِي أَوْرَاقِهِ النَّضْرُ
مَخَازِنُ مِينَ ذَهَبٍ أَصْفَرٍ لُفِيفْنَ فِي أَرْدِيَةِ خَضِرٍ

ووصف السري الرفاء العنب وشبهه بالذهب وشبه أوراق الكرمة
الخضراء بأثواب من سندس^(١) فقال :

وَالكَّرْمُ مُشْتَبِكُ الْأَفْنَانِ تَوْسَعُنَا أَجْناسُهُ فِي تَسَاوِي شَرْبِهَا عَجَبَا
فَكَرْمَةٍ قَطَرَتْ أَغْصَانُهَا سَبْحًا وَكَرْمَةٍ قَطَرَتْ أَغْصَانُهَا ذَهَابًا^(٢)
كَأَنَّمَا الْوَرَقُ الْمُخْضَرُّ دُونَهُمَا غَيْرَانِ يَكْسُوهُمَا مِنْ سِنْدَسٍ حَجَبَا

وكما وصف السري العنب وصف أيضاً شجر النخل الباسق وشبه
شماريخه بالعقيان^(٣) :

فَالنَّخْلُ مِنْ بَاسِقٍ فِيهِ وَبَاسِقَةٌ يُضَاحِكُ الطَّلَعُ فِي قَنَوَاتِهِ الرُّطْبَا
أَضْحَتْ شِمَارِيخُهُ فِي النَّحْرِ مَطَاعَةً إِمَّا ثُرَيَّا وَإِمَّا مُعْظَمًا خُضْبَا
تُرِيكَ فِي الطَّلْعِ عَقِيَانًا فَإِنْ نَظَرْتُ شَمْسُ النَّهَارِ إِلَيْهَا خَلَّتْهَا لَهَا

ووصف الليمون وشبهه بالنجوم في سماء الغصون وبالأكر المصاغة من
الفضة والمشابة بالذهب^(٤) فقال :

وَاصْطَبَحْنَاهَا عَلَى نَهْـ
ظَلَّلْتَهُ شَجَرَاتُ
فَلَكَ أَنْجَمَهُ اللَّيْـ
رٍ بِصَفْوِ الْمَاءِ يَجْرِي
عَطْرُهَا أَطْيَبُ عِطْرِ
مُونٍ مِنْ بَيْضٍ وَخَضِرٍ

-
- (١) ديوان السري (٣٥) .
(٢) السبح : خرز اسود .
(٣) ديوان السري (٣٥) .
(٤) المصدر نفسه (١٣٣) .

أَكْرَ من فِضَّةٍ قَدَ شَابَهَا تَلَوِيحُ تِبْرِ

ووصف أبو فراس الرمان وشبهه بقراضة ذهب مغطاة بثياب عصفرية
اللون : فقال (١) :

وَجُلُنَارٍ بِمَشْرِقٍ عَلَى أَعَالِي شَجَرَةٍ
كَأَنَّ فِي رُؤُوسِهِ أَصْفَرَهُ وَأَحْمَرَهُ
قُرَاضَةً مِنْ ذَهَبٍ فِي خِرْقٍ مُعْصَفَرَةٍ

ووصف كشاجم النّارنجة وشبهها بنجمة من التبر تدلت في سماء من
الزّمرّد وشبهه شذاها بالمسك فقال (٢) :

كَأَتَمَّا النَّارَنْجُ لَمَّا بَدَتْ أَغْصَانُهُ فِي الْوَرَقِ الْخُضْرِ
زُمرّدٌ أَبَدَى لَنَا أَنْجُمًا مَعْجُونَةً مِنْ خَالِصِ التَّبْرِ
إِذَا هَيَّأْنَا بِهَا خَلِيتَنَا نَسْتَنْشِقُ الْمَسْكَ مِنَ الْحَمْرِ

وهكذا نلاحظ افتتاح شعراء الندوة السيفية بالأزهار والثمار وبراعتهم في
وصفها وتأسيسهم مدرسة فنية في هذا اللون من الشعر ولقد انعكست آثار
هذه المدرسة في الشرق والغرب وتأثر بها أدباء بغداد وشعراء الأندلس وبلغ
من إعجاب الأندلسيين بها أن سموا شاعرهم المبدع ابن خفاجة بصنوبري
المغرب تأسيساً بالشاعر المشرقي الكبير .

الأنهار والمياه :

برع الشعراء الحمدانيون في هذا اللون من الشعر وأكثروا من وصف

(١) ديوان أبي فراس (٢ / ١٩٤) .

(٢) ديوان كشاجم (٨٥) .

الأنهار وبرعوا في وصف المياه وما يتصل بها من سواق وبرك وغدران
وغيرها . وكان أبرعهم وأكثرهم خوضاً في هذا المضمار كل من الصنوبري
وكشاجم والسري الرفاء .

ولقد تغنى الصنوبري بنهر قُوتِ مَلءَ القم والقلب وفتن الناس بغنائه
فقال (١) :

قُوتِ لَهْ عَهْدٌ لَدَيْنَا وَمِثَاقُ وَهَذِي الْعُهُودُ وَالْمَوَاقِيقُ أَطَوَاقُ
نَفَى الْخَوْفَ إِنَّا لَا غَرِيقَ حَيَالِهِ فَنَحْنُ عَلَى أَمْنٍ وَذَا الْأَمْنُ أَرْزَاقُ
وَنَزَّهَهُ إِلَّا سَفِينَةً تَمْتَطِي مَطَاهُ لَهَا وَخَدٌّ عَلَيْهِ وَأَعْنَاقُ
وَلِنْ لَيْسَ تَعْتَاقُ التَّمَاسِيحُ شَرِبَهُ إِذَا اعْتَنَاقَ شَرِبَ النَّيْلُ مِنْهُمْ مُعْتَاقُ
أَقَامَ بِهِ التَّمَسَّاحُ سَوْقًا وَلَمْ تَزَلْ تُقَامُ عَلَى شَطِئِهِ لِلطَّيْرِ أَسْوَاقُ

وقد مثل النهر في جو السلام والأمن فلا تمساح ولا غرق ولا اصطخاب .

ويستطرد الصنوبري فيصف جماله الطبيعي الهادئ ويتمثل فيه صفاء
البلور وبياض اللؤلؤ وألوان النبات والزهر ويزيد جماله طيب الرائحة وشفافه
للشارب .

وَفَاضَتْ عَيُونٌ مِنْ نَوَاحِيهِ ذُرْفٌ وَلَمَّا تَعَاوَنَهَا جُفُونٌ وَامَاقُ
هَوَ الْمَاءُ إِنْ يَوْصَفُ بِكُنْهِ صِفَاتِهِ فَلِلْمَاءِ إِصْغَاءٌ لَدَيْهِ وَإِطْرَاقُ
فَفِي اللَّوْنِ بَلُورٌ وَفِي اللَّجْمِ لَوْلُؤٌ وَفِي الطَّيْبِ قَنْدِيدٌ وَفِي النَّفْعِ دِرْيَاقُ (٢)
إِذَا عَبَثَتْ أَيْدِي النِّسِيمِ بِوَجْهِهِ وَقَدْ لَاحَ وَجْهُ مِنْهُ أَبْيَضُ بَرَّاقُ

(١) ديوان الصنوبري (٤٢٣ - ٤٢٤) .
(٢) القنديد : غسل قصب السكر اذا تجمد .

فَطَوَّرَا عَلَيْهِ مِنْهُ دَرْعٌ خَفِيفَةٌ وَطَوَّرَا عَلَيْهِ جَوْشَنٌ مِنْهُ رَقْرَاقٌ
وهو عاشق لقُويْنِ بل الناس جميعاً عاشقون له على حدّ رأيه وفي
ذلك يقول :

وَقَدْ عَابَهُ قَوْمٌ وَكَلَّهْمُ لَهُ عَلَى مَا تَعَاطَوْهُ مِنَ الْعَيْبِ عُشَّاقٌ
وَقَالُوا : أَلَيْسَ الصَّيْفُ يُبْلِي ثِيَابَهُ فَقُلْتُ : الْفَى فِي الصَّيْفِ يَقْنَعُهُ طَاقٌ

ووصف نقص مائه في الصيف فقال : إنه ينحل وينمو في الشتاء شأن
أصحاب الأمزجة الصفراوية الذين تنحل أجسامهم في الصيف ويوافقهم
الشتاء (١) :

قُويْتُ عَلَى الصَّفْرَاءِ رُكِّبَ جِسْمُهُ رَبَاهُ بِهَذَا شَهْدٌ وَحَدَائِقُهُ
إِذَا جَدَّ جَدَّ الصَّيْفِ غَادَرَ جِسْمَهُ ضَمِيلاً وَلَكِنِ الشِّتَاءُ يُوَافِقُهُ

ويداعب الصنوبري النهر الذي أحبه حباً عظيماً ويصف حاله في
الصيف فيقول (٢) :

قُويْتُ إِذَا شَمَّ رِيحَ الشِّتَاءِ أَظْهَرَ تَبِيهَاً وَكِبَرًا عَجِيبًا
وَلِنْ أَقْبَلَ الصَّيْفُ أَبْصَرْتَهُ ذَلِيلًا حَقِيرًا حَزِينًا كَثِيبًا
إِذَا مَا الضَّفَادُ نَادَيْتَهُ قُويْتُ قُويْتُ أَبِي أَنْ يُجِيبَا
تَمْشِي الْجَرَادَةُ فِيهِ فَلَا نَكَادُ قَوَائِمُهَا أَنْ تَغِيْبَا

وكما وصف الصنوبري نهر قويق وتغنى بحسنه وصف نهر الفرات
وترنم بجماله ورياضه في قوله (٣) :

(١) ديوان الصنوبري (٤٢٥) .

(٢) الروضيات (٤٣) .

(٣) ديوان الصنوبري (٤٧٠) .

ولَقَدْ ظَمِثَ إِلَى الْفُؤَا تِ بِكُلِّ ذِي كَرَمٍ وَمَجْدِ
وَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا صَفَاءُ مَذْهَبَةِ الْفُرْنَدِ
وَالْمَاءُ حَاشِيَتَاهُ خَضُ رَاوَانٍ مِنْ آسٍ وَرَنْدِ
نَجْوَهُ أَيْدِي الرِّيحِ إِنْ وَلَّتْ عَلَى قُرْبٍ وَبُعْدِ
بَطْرَائِفٍ مِنْ فِضَّةٍ وَطْرَائِفٍ مِنْ لَازُورْدِ

وهو يعبر عن شوقه إلى القرات ويصف لحظة الغروب والرياض الغنّ المحيطة بضفتيه ثم ينتقل إلى وصف السفن التي تمخر عبابه ويشبّھها بالطير ويشبه مدّ النهر وجزره بتملّمل المحب الذي تندلع في قلبه النيران لصدّ محبوبته فيقول :

وَالسُّفُنُ كَالطَّيْرِ انْبَرَتْ فِي الْجَوِّ مِنْ مَتْنِي وَفَرْدِ
حَتَّى إِذَا جَزَرَ الْفُؤَا تٌ مَضَى وَأَعْقَبَهُ بِمَدِّ
الْفَيْتَنَةِ وَكَأَنَّهُ مُلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءُ وَرْدِ
مُتَمَلِّمًا كَالصَّبِّ أَوْ ذِنْ مِنْ أَحَبَّتْهِ بِصَدِّ
وَكَأَنَّمَا بِحَاشَاهُ مَا بِحَاشِيَّ مِنْ قَلْقٍ وَوَجْدِ

ووصف الأنهار والمياه صفة بارزة في شعر السري الرفاء ولقد قال يصف دولاباً يرفع الماء من النهر إلى الأرض ليرويها واتخذ من حركاته وأصواته وكيزانه مراتع للوصف وهو يشبه صوت الدّولاب في حالتي الرفع والخفض بندب أطفال زئج رضع ويشبه كيزانه بالكواكب التي تطلع ثم لا تلبث أن تختفي وذلك حيث يقول (١) :

الْمَاءُ يَلْبَبُ بِالْأَرَاقِمِ مَوْجُهُ وَالسُّفُنُ بِالْأَذْنَابِ فِيهِ عِقَارِبُ

(١) ديوان السري الرفاء (٤٠) .

والصَّوْتُ من دَوْلَابٍ كُلِّ مَتَوَجِّحٍ أَطْفَالُ زُنْجٍ لِلرَّضَاعِ نَوَادِبُ
فَانْظُرْ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّمَا كِيزَانُهُ وَالْمَاءُ مِنْهَا سَاكِبُ
فَلَكَ يَدَوْرٌ بِأَنْجَمٍ جُعِلَتْ لَهُ كَالْعِقْدِ فِيهِ شَوَارِقُ وَغَوَارِبُ

ووصف غديراً صافي الماء رقراقاً أحاطت به الرياض والأزهار فقال (١) :

رُبَّ صَافٍ رَقْرَقَتَهُ الرَّيْحُ فِي مَسْنَى صِفَاتِ
عَبَقٍ مِنْ جَرٍّ أَذْيَا لِي رِيَّاحٍ عِبَقَاتِ
صَافِحَ الرِّكْبَانُ مِنْهُ صَفْحَتِي عَذْبُ فُرَاتِ
أَوْدَعْتَهُ الرِّيحُ مَا اسْتَوَى دَعَا زَهْرُ النَّبَاتِ
فَانْشِنَا عَنْهُ بِأَيْدٍ خَصِرَاتِ عَطِرَاتِ

وقال يصف الجسر ويشبهه بالطراز الذي يلوح في الرداء وبالخیل الدهماء (٢) :

كَأَنَّمَا الْجِسْرُ قَوِيْقَ الْمَاءِ وَسُفْنُهُ جَانِحَةُ الْأَفْيَاءِ
شِبْهُ الطَّرَازِ لَاحٍ فِي الرِّدَاءِ كَأَنَّهُ فِي خِلْعِ الظُّلَمَاءِ
دُهُمٌ مِنْ الْخَيْلِ عَلَى رِدَاءِ

ولقد وصف الصنوبري البركة وتأثر بوصف البحري لبركة المتوكل
إلا أن وصفه لها لا يقل روعة وجمالاً عنه :

سَقَى حَاسِبًا سَافِكٌ دَمْعَهُ بَطِيءُ الرُّقُوءِ إِذَا مَا سَفَكَ
مِيَادِينَهُ بَسْطَ هُنَّ الرِّيَاضُ وَسَاحَاتُهُ بَيْنَهُنَّ الْبِرْكُ

(١) المصدر نفسه (٦٥) .

(٢) ديوان السري (١٤) .

ترى الريح تنسجُ من مائه دروعاً مضاعفةً أو شبكُ
 كأنَّ الزَّجاجَ عليها أذيبَ وماءَ اللَّجِينِ بها قد سُبِكُ
 هي الجوّ من رقةٍ غيرَ أنَّ مكانَ الطَّيُورِ يطيرُ السَّمَكُ
 وقد نُظِمَ الزَّهْرُ نُظْمَ النُّجُومِ فمفترقُ النّظْمِ أو مشتبكُ
 كما دَرَجَ الماءَ مرَّ الصَّبَا ودَبَّجَ وجهَ السماءِ الحبُّكُ

ونلاحظ أن الشاعر جعل الريح تنسجُ من ماء هذه البحيرة درعاً وشبّة ماءها باللّجين وزهرها بالنجوم الساطعة في السماء .

وهكذا يمكن القول بأن شعراء الندوة السيفية قد استحدثوا فنّاً جديداً في الوصف وتناولوا الصور المائيّة التي حفلتُ بها بيئتهم فوصفوا الأنهار والجسور والبرك والغدران والدواليب وبرعوا في الوصف وأحسنوا وأجادوا .

الثلجيات :

لم يعرف أدبنا القديم الثلجيات لأن البيئة العربية لم تألف الثلج وحين اتسعت هذه البيئة وشملت مواطن تألف سقوطه كبلاد الشام وشمالى العراق وفارس بقي الثلج بعيداً عن متناول الشعراء على الرغم من أنهم تأثروا بالبيئة الجديدة في كثير من أغراضهم الشعرية ومعانيهم الأدبية وصورهم الفكرية . ويعدّ الصنوبري أول من تغنّى بالثلج وبدائعه في الأدب العربي فقد كانت حلب تشهد في كثير من فصول الشتاء أياماً للثلج بهجة . ولم تكن ثلجيات الصنوبري تقليداً لأحد بل كانت من وحي البيئة التي تأثر بها تأثراً كبيراً . ومن شعره في وصف الثلج قوله (١) :

ألم ترَ كيفَ قد لبستَ رُبّاهَا منَ الثَّلَجِ المضاعفِ أي لُبسِـ

(١) ديوان الصنوبري (١٧٩) .

ثِيَابٌ لَا تَزَالُ تَذُوبُ لَيْنًا إِذَا الْأَيْدِي عَرَضْنَ لَهَا بِلَمَسٍ
كَأَنَّ الْغَيْمَ مِمَّا بَثَّ مِنْهُ عَلَى أَرْجَائِهَا أُنْدَافُ بَرَسٍ

وهو يفرح بالثلج الذي تَوَجَّ الرَّبَّ ثِيَابًا لَيْسَةً الملمس وجعل قطع الجليد
المتناثرة في الفضاء قُطْنًا مندوفاً .

وقد تغنى الصنوبري في الثلج أيضاً فقال (١) :

ذَهَبَ كَثُوسَكَ يَا غُلًّا مٌ فَإِنَّ ذَا يَوْمٌ مَفْضَضٌ
وَالْجَوَّ يُجَلِّي فِي الْبَيَا ضٌ وَفِي حَلِيّ الدَّرِّ يُعَرِّضُ
أُظْنَنْتَ ذَا ثَلْجًا وَذَا وَرَدًا مِنَ الْأَغْصَانِ يُنْفَضُ
وَرَدُ الرَّبِيعِ مُلَوَّنٌ وَالْوَرْدُ فِي كَانُونٍ أَبْيَضُ

ولقد تأثر كثير من الشعراء بوصف الصنوبري للثلج فنسجوا على منواله
ومن هؤلاء كشاحم الذي كان حظّه من الثلجيات أعظم ، وفننه بها أبهرَ
من كل فتنه ، إذ يقول :

ثَلْجٌ وَشَمْسٌ وَصُوبٌ غَادِيَةٌ وَالْأَرْضُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ غُرَّةٌ
بَاتَتْ وَقِيْعَانَهَا زَبَرَجْدَةٌ فَأَصْبَحَتْ قَدْ تَحَوَّلَتْ دُرَّةٌ
كَأَنَّهَا وَالثَّلْجُ يَضْحَكُهَا تَغَارُ مِنْ أَحَبِّهِ غَيْرَةٌ

هو في ثلجيته يجعل الأرض ضاحكة فرحة بثوبها الذي كساها به الثلج ،
أما القيعان فلقد أصبحت درة ساحرة الجمال وخلعت ثوبها الأخضر وارتدت
بدلاً منه ثوباً أبيض .

(١) ديوان الصنوبري (١٧٩) .

وعُني السري الرفاء بالثلج ووصفه وتغنى به على طريقة الصنوبري
وكشاجم فقال ^(١) :

تَلَأَلَتِ الرَّبَا لَمَّا عَلَاهَا كَأَنَّ عَلَى الرَّبَا أَثْوَابَ آلِ
كَأَنَّ ذُرَا الغُصُونِ لِبَسْنَ مِنْهُ حَلَى الكَافُورِ رَبَّاتُ الحِجَالِ
تَجُولُ العَيْنُ فِيهِ وَهُوَ فِيهَا كَشْهَبِ الخَيْلِ رُحْنُ بِلَا جِلَالِ

وقد جعل الربا مكسوة بثوب أبيض وشبه الثلج بالكافور ومن تشبيهاته
البديعة في الثلج قوله :

أَمَا تَرَى الثَّلَجَ قَدْ خَاطَتْ أَنَامِلُهُ ثَوْبًا يَزُرُّ عَلَى الدُّنْيَا بِأَزْرَارِ
نَارٌ وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ بِمُبْدِيَةٍ نَوْرًا وَمَاءٌ وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْحَارِي

ونلاحظ أن شعراء الندوة السيفية قد برعوا في هذا الفن الجديد من الشعر
وتأثر الشعراء بطريقتهم ونسجوا في بغداد على منوالهم . وسلك المهلبي
والصاحبُ بن عباد طريق الصنوبري في وصف الثلج وهو يعد إمام هذا
المذهب ^(٢) .

الفصليات :

تأثر شعراء سيف الدولة في وصفهم لفصول السنة بجو حلب الخلاب
الجميل الذي تتمثل فيه الفصول تمثلاً حقيقياً ولا يطغى فيه فصل على فصل .
ولقد سبق للشعراء أن تغنوا بالربيع وأنشدوا أعذب الشعر وأرقه في
خمائله وخضرته وطيوره ومائه وثماره . وقصائد أبي تمام والبحري وابن
الرومي في هذا الشأن شائعة ذائعة وجميلة ساحرة .

(١) ديوان الرسي الرفاء (٢٣٠) .

(٢) اليتيمة (٢ / ١٠٩) .

وقد أُكثِر شعراء الندوة السيفية من وصف الفصول وأبدعوا في هذا اللون أيّما إبداع . ومعانيه عندهم كثيرة تتصل بالسماء كما تتصل بالأرض ويتأثر بها الحس كما تتأثر النفس .

وكان الصنوبري - وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي - ولوعاً بالسماء والضياء والهواء وهو يقول في إحدى أغاني الربيع (١) :

إن كانَ في الصَّيفِ رِيحانٌ وفاكِهةٌ والأرضُ مُستوقِدةٌ والجوُّ تنوُّرٌ
وإنْ يكنْ في الخريفِ النخلُ مَحترقاً فالأرضُ عُرْيانةٌ والجوُّ مَقْرورٌ
وإنْ يكنْ في الشِّتاءِ الغَيْثُ متصلاً فالأرضُ محصورةٌ والجوُّ مأسورٌ
ما الدَّهْرُ إلاَّ الرَّبيعُ المُستَنيرُ إذا جاء الرَّبيعُ أتاكَ النُّورُ والنُّورُ

ونلاحظ أن الشاعر يعقد موازنة لطيفة بديعة بين فصول السنة ويفضل الربيع عليها جميعاً .

وينساب الشاعر فيصف جمال الربيع برياضه الغنّ وأزهاره الشديدة ومياهه الرقراقة فيقول :

الأرضُ يا قُوتةٌ والجوُّ لؤلؤةٌ والنبتُ فيروزجٌ والماءُ بلسورٌ
تباركَ اللهُ ما أحلى الربيعُ : فلا تُغرَّرَ فقايسُهُ بالصَّيفِ مَغْرورٌ
مَنْ شَمَّ طيِّبَ جَنِيَّاتِ الرَّبيعِ يَقُلْ لا المسكُ مسكٌ ولا الكافورُ كافورٌ

وفي قصيدة أخرى يصف الصنوبري الشتاء ويتغنى به ويقول (٢) :

طَيِّبَ دارِي لِيَ الشِّتاءُ وهلْ شيءٌ كشيءِ يُطَيِّبُ الدَّورَا

(١) الوافي في الوفيات (١ / ٦١) .

(٢) ديوان الصنوبري (٢٧) .

بالصحن والسطح والمجالس والرّاق ما إنْ أزال مسرورا
وبالحياض التي تتيه على مُحجَّراتِ الرياضِ تحييرا
لله يومٌ هناك قد ضربَ الدغيمُ لنا دونَ شمسهِ سورا
والسَّحْبُ مشغولةٌ ببركتينا تصوغُ من مائها قواريرا

فهو يصف مياه الشتاء المتدفقة وغيومه التي حجبت الشمس وجعلت دونها
سوراً وسحبه التي شغلت بمناجاة البرك وصاغت من مائها قواريرا .

ويفتن السري الرفاء بالربيع ويحتفل به ويبتهج لقدمه ويصور جمال السحب
في أفق السماء وبهاء الرياض التي تفتحت أنوارها وجرت أنهارها (١) :

هفا طرباً في أوانِ الطربِ فَأَنْخَبَ أَقْداحُهُ كَالنَّخَبِ
وغنّى ارتياجاً إلى عارضٍ يَغْنِي وَعَبَّرَتْهُ تَنَسَّكِبُ
غُيُومٌ تَمَسَّكَ أَفْقَ السَّمَاءِ وَبَرَقَ يَكْتَسِبُهُ بِالذَّهَبِ
وخَضْرَاءُ يَنْثُرُ فِيهَا النَّدَى فَرِيدُ نَدَى مَا لَهُ مِنْ ثَقَبِ
فَأَنْوَارُهَا مِثْلُ نَظْمِ الْحُلِيِّ وَأَنْهَارُهَا مِثْلُ بَيْضِ الْقَضْبِ
وأَحْسَنُ شَيْءٍ رُبِعِ الْحَيَاةِ أَضْيَفَ إِلَيْهِ رُبِعُ الْأَدَبِ

فالشاعر يعبر عن ابتهاجه في ذلك اليوم البارد الذي صبا فيه إلى الصبا
فصور هواءه البارد وغيمة الصافي وسماءه السخية التي تذرِفُ الدموع وبرقه
الذي يحاكي النار .

ونلاحظ أن شراء الندوة السيفية اهتموا بالفصول جميعها فوصفوها
وصفاً بارعاً وعقدوا بينها موازنات طريفة . وأتوا بالصور الحديدية المبتكرة
والمعاني اللطيفة للدقيقة .

(١) اليتيمة طبعة ١٩٤٧ (٢ / ١٦٩) .

وصف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية

بلغ المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري قمة التقدم الحضاري ،
وتعددت مظاهر الترف وألوان النعيم .

وشاركت إمارة سيف الدولة في مظاهر هذا التقدم الحضاري حيث
انفعل الشعراء بهذه الحياة وتأثروا بها ويمكننا أن نقول إن شعراء الندوة السيفية
لم يدعوا مظهرأ من مظاهر الحضارة إلاّ وصفوه في دقة وتفصيل ، فوصفوا
أدوات الكتابة والأدوات العلمية كما وصفوا آلات الموسيقى وقوارير العطر
ومواقد الفحم في الشتاء والحمّامات وغيرها من سُبُل الحضارة . وحلّقوا
في الوصف وبلغوا ذروة الفن وطرقوا كل الموضوعات في عمق وشمول
ورسموا الحياة في كثير من الإبداع والفن. وسنعرض في هذا الفصل الحديث
عن الشعر وتصويره لهذه الألوان من الحياة الحضارية .

أدوات الكتابة :

اهتم سيف الدولة بالكتابة وأولاهها الكثير من عنايته ورعايته وبرز في
رحابه شعراء كتاب ومن هؤلاء كشاجم . ولا غرو أن يهتم بالكتابة ويُعنى
بها ويصف أدواتها في الكثير من شعره . ولقد قال في وصف القلَم :

نخيفُ العُرا ، يعدو على أُم رأسِهِ ويحنى ، فيقوى عدوه حين يقطعُ

يَمَجُّ ظِلَاماً فِي نَهَارٍ لِسَانِهِ وَيَفْهَمُ عَمَّنْ قَالَ مَا لَيْسَ يَسْمَعُ
فَصِيحٌ ، مَتَى يَنْطِقُ تَجِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ أَصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَقَرَّعُ

ولقد وصف كشاجم أيضاً محبرةً وأقلاماً ومقلمةً وسكيناً واستعاض
بأدواته هذه ومجالس الأدب عوضاً عن اللهو وآلات الطرب فهو يقول :

حَسَنِي مِنَ اللَّهْوِ وَآلَاتِ الطَّرَبِ وَمِنْ ثَرَاءِ وَعْتَادِ وَنَشَبِ
مَجَالِسِ مَصُونَةٍ عَنْ الرِّيْبِ مَعْمُورَةٍ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يُطَلَّبِ
تَكَادُ مِنْ حَرِّ الْحَدِيثِ تَلْتَهِبُ شِعْراً وَأَخْبَاراً وَنَحْواً يُقْتَضَبُ
وَلِغَةٍ تَجْمَعُ أَلْفَاظَ الْعَرَبِ وَفِقْراً كَالْوَعْدِ فِي قَلْبِ الْمَحِبِّ

ثم ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة اللطيفة إلى وصف المحبرة والأقلام فيقول :

مَثْقُوبَةٌ آذَانُهَا فِي الثَّقَبِ مِنْ مِثْلِ شَوْقِ الْخَرْدِ الْبَيْضِ الْعَرَبِ
تُضْمِنُ قَطْراً لِلْكِتَابِ عَنْ كَشَبِ أَسْوَدٍ يَجْرِي بِمَعَانِ كَالشَّهْبِ
لَا تُنْضِبُ الْحِكْمَةُ إِلَّا إِنْ نُضِبَ نِيْطَتْ إِلَى يُسْرَى يَدَيَّ بِسَبَبِ
كَالْقُرْطِ فِي الْجِيدِ تَدْلَى وَاضْطَرَبَ يَصْحَبُهَا وَالْأَخْوَاتُ تُصْطَحَبُ

وهو يصف المحبرة وصفاً دقيقاً فهي مثقوبة وتحتوي على حبر أسود
يجري بالمعاني اللطيفة والأفكار العميقة والقلم كالقُرْطِ في الجيد يصحبها
في كل وقت وآن والأخوات تصطحب .

ويعضي الشاعر على رسله فيصف المقلمة والسكين فيشبه المقلمة بالكنانة
والأوراق لا تضحك إلا إذا بكت أقلام تلك الكنانة ثم يصف جمال السكين
وقوامها الأهيئ ويصور تقويمها للأقلام وبريها إياها فيقول :

كِنَانَةٌ تُودَعُ نَبْلاً مِنْ قَصَبٍ لَمْ تَعْلَهَا رِيْشٌ وَلَمْ تُكْسَ عَقَبَ

لا تضحكُ الأوراقُ حتى تنتحبُ ترمي بها يميني أغراضَ الكتُبِ
 رَمِيًا متى أقصدُ به السمتَ أصبُ ومُنيّةٌ كالغضبِ مائلٌ قَضَبُ
 غضبي على الأقلامِ مَنْ غيرِ سَبَبِ تسطو بها كل حينٍ وتثبُ
 وإنّما ترضيك في ذاك الغَضَبِ والظرفُ في الآلاتِ شيءٌ يُسحبُ

وكشاجم الذي عُرِفَ بلطائفه واشتهر بها رثي سكيناً فقدّها وبكى
 عليها وتفجع وكأنه يبكي على عزيز فقدّه فقال :

يا قاتِلَ اللهُ كُتَابَ الدّواوينِ ما يستحلّون من سَرَقِ السكاكينِ
 لقد دهاني لطيفٌ منهمُ خَتِلٌ في ذاتِ حدٍّ كحدِّ السيفِ مسنونِ
 فابتزّنيها ولمْ أشعُرْ بهِ عِبَثًا ولستُ لو ساعني ظنٌ بمغبونِ
 وأقفرَت بعدَ عُمُرانٍ بموقعِها منها دواةٌ فتيٌ بالكتُبِ مفتونِ
 يبكي على مُدِيّةِ أودى الزّمانُ بها كانت على جائرِ الأقلامِ تُعديني
 كانتُ تقومُ أقلامي وتُحِفُّها برِياً وتسَخَطُها قطعاً فترضيني

ونحن نلاحظ أنه يتهم أحد كتّاب الدواوين بسرقة سكينته ويصفها بأنها
 حادة كحد السيف وأنها أثيرة حبيبة لنفسه ثم يتفجع عليها ويتحسر على فقدّها .

ووصف السري الرفاء القلَمَ وصفاً بارعاً فشبهه بالأخرس الفصيح
 والعاشق المخفي هواهُ الذي تفضحه عبراته وهو عُرِيان يكسو الناس وأسيرٌ
 طالما أطلق أقواماً من الأسر . فقال (١) :

أخرسٌ يُنبِّيكَ بإطراقِه عن كلّ ما شئت من الأمرِ
 يُنذري على قِرطاسه دمعَةً تُبْدي لنا السرَّ وما تُدري

(١) ديوان السري الرفاء (١٤١) .

كما شق أخفى هواهُ وقد نمت عليه عبْرَةٌ تجزِي
تبصرُهُ في كلِّ أحوالِهِ عُرْيَانٌ يكسو الناسَ أويُعري
يرى أسيراً في دَوَاةٍ وقد أطلقَ أقواماً منَ الأسرِ

ومن وصفه البديع للقلم قوله :

لَهُ قَلَمٌ تَجْزِي النُّجُومُ بِجَرِيهِ يُطِيعُ لَهُ حَمَمُ الْقَضَاءِ وَيَسْمَعُ
يُديرُ سَعُوداً أوْ نُحُوساً وإنَّه منَ الفَلَكِ الدَّوَارِ في الجَوِّ أَسْرَعُ
إذا ما امتطى مِنْهُ ثَلَاثَ أَزْمَلٍ بدا ساجِداً مِنْ تَحْتِهَا وَهِيَ رُكْعُ

وهو يصف القلم بأنه أسرع من النجم والفلك في جريانه وبأنه يدير
السعد والنحس بكونه والأصابع تمسك به ساجداً وهي رُكْعُ .

ووصف أبو بكر الخالدي القلم وبدا تأثره واضحاً بالسري الرفاء في
وصفه فهو يتشابه معه في الأسلوب والمعنى ^(١) إذ يقول :

لَهُ قَلَمٌ كَقَضَاءِ الإِلَهِ هـ فبالسعد طوراً وبالنحس ماضٍ
وما فارَقَ الأسدَ في حَالَتَيْهِ يَسْبِيساً وذا وَرَقَاتٍ غَضاضٍ

وهكذا نلاحظ أن هذا اللون من الشعر يعدّ فنّاً انتشرت ألوانه وتعددت
صوره ونمت رسومه في رحاب سيف الدولة وعلى يد شاعره كشاجم وإن
كان أساسه وأصوله موجودة في شعر أبي تمام غير أن كشاجم قد أكثر من
هذا اللون الشعري وجدد في مبانيه ومعانيه وابتكر في صورته ورسومه حتى
يمكن القول أنه أصبح أشهر زعماء هذه المدرسة وأبرز روادها في الأدب

(١) ديوان الخلالدين (٦٧) .

العربي وعلى طريقه سار السري الرفاء وبه تأثر كما تأثر غيره من الشعراء به فيما بعد .

تنوعت أدوات الحضارة في المجتمع الحمداني وتعددت سبلها وألوانها وكان من الطبيعي أن يتأثر الشعراء بها وأن يعرضوا لها بالوصف في أشعارهم وأن يتحدثوا عنها في قصائدهم .

واقعد وصف كشاجم المذبة التي هي من أدوات الصيف فقال (١) :

مِذْبَةَ تُهْدَى إِلَى سَيِّدٍ	ما زال من كلّ وليّ يَدْبُ
طَرِيفَةً لَمْ يَخْلُ مِنْ مِثْلِهَا	مَجْلِسُ ذِي ظَرْفٍ وَلَا ذِي أَدَبٍ
لَطِيفَةً تَجْمَعُهَا حَلِيبَةٌ	مَذْهَبَةٌ فِي قَائِمٍ مُنْتَعِبٍ
كَأَنَّهَا فِي ظَهْرِ مَجْدُودَةٍ	ذَوَابَةٌ أَنْبُوبُهَا مِنْ ذَهَبٍ
قَلِيلَةُ الْمِقْدَارِ لَكِنَّهَا	أَكْثَرُ مِنْهَا أَنَّهَا مِنْ مُحِبٍ

وهو يصف المذبة بأنها زينة كل مجلس ظرف وأدب وبأن قائمها من الذهب . وهي قليلة المقدار ولكن أهميتها العظيمة كونها هدية من محب .

ووصف أبو بكر الخالدي المروحة التي أهداها إلى أحد الكتاب فقال (٢) ،

بَعَثْتُ إِلَيْكَ أَطَالَ الْإِلَـ	هُ عُمْرُكَ مَا طَالَ عُمْرُ الْحَقَبِ
بِمِرْوَحَةٍ رَاحَةٍ لِلْقُلُوبِ	لَهَا نَسْبَتَانِ إِذَا تَنَسَّبَ
فَفي سَعَفِ النَّخْلِ نَخْلُ النَّبِيطِ	وَفِي الْخِيزَرَانِ غِيَاضُ الْعَرَبِ
عَلَيْهَا الْحِدَادُ كَمُهْجُورَةٍ	رَمَتْهَا عَشِيقَتُهَا بِالْغَضَبِ

(١) ديوان كشاجم (٩) .

(٢) ديوان الخالدين (٢٧) .

وهو يصف المروحة بأنها راحة للقلوب وتنتسب إلى سعف النخل والخيزران وأنها مصبوغة باللون الأسود ثم يستطرد الشاعر فيذكر منافعها الجمّة فهي تردّ حرّ التشارين وتُجعل سترًا وقت الحديث كما أن صوتها موسيقى وتصلح كذلك لضرب الدّلال ويوماً بها خلال الكلام فيقول :

منافعُها أبداً جمّةٌ لما ليكيها غير قول كذبٍ
تردّ التشارين في حمّة من القبط نيرانها تلتهبُ
وتُجعلُ سترًا إذا ما أراد ت سيراً إلى صاحب في سببُ
وإن شئت كانت قضيب الأفاح فأدّت إليك فنون الطربِ
وتصلح للضرب ضرب الدلال دلال الحبيب إذا ما عتبُ
وتومي بها في عروض الكلام إذا ما أجبت لنثر الخطبِ

واهتم الشعراء بأدوات الترف والحضارة فوصفوا الشمعة وأكثروا من الحديث عنها في شعرهم ومن ذلك قول الواواء في وصفها (١) :

ومخطوفة الخصر لما بدت لدى الليل عاينت صباحاً يضي
تعاقب من نفسها نفسها فتقضي الأمور كما تنقضي
وتمرض إن تركوا رأسها وإن قصدوا الرأس لم تمرض

وهو يصفها بأنها رقيقة الخصر هيفاء وهي عدوة الظلام وتمرض إذا لم يقطعوا رأسها ووصفها السري الرفاء (٢) بقوله :

وشمعة في يد الظلام حكت عتق ظليمٍ بغير منقارٍ
تبكي إذا نار شوقها اضطربت بدمع تبرٍ من الأسى جاري

(١) ديوان الواواء (١٣٧) .

(٢) ديوان السري (٣٨٤) .

كَأَنَّمَا نَخْلَةً بَلَا سَعَفٍ تَحْمِلُ أُتْرُجَةً مِنْ النَّارِ
وواضح أنه يشبّهها بعنق ذكر النعام طويلاً ويشبّه قطراتها بدمعٍ من
التبر كما يشبّهها بنخلة بلا سَعَفٍ تحمل أُتْرُجَةً من نار .

وكما وصف الشعراء الشمعة ورسموها بشتّى الصور البديعة نراهم كذلك
وصفوا المجرمة وأكثروا من الحديث عنها فلقد قال الصنوبري (١) :

وَبِرْكَةٍ نَارٍ تَسْتَقِيلُ بِمِقْبَضٍ لَهَا مِنْ نَوَاحِيهَا قَوَائِمُ أَرْبَعُ
إِذَا الْأَعْيُنُ اشْتَاقَتْ إِلَيْهَا بَدَتْ لَهَا وَفِي وَسْطِهَا عَيْنٌ مِنَ الطَّيِّبِ تَنِيغُ
وهو يصف المجرمة ويشبّهها ببركة متقدّة من النار ويشبّه وسطها بالعين
التي تنيع طيباً .

ويشبّهها في قصيدة ثانية بفوّارة في بركة جميلة ماؤها الدخان بدل الماء
وحصباؤها النيران (٢) فيقول :

مَجْمَرَةٌ طَافَ بِهَا الْغِلْمَانُ أَبْدَعَ فِي صَنَعَتِهَا الزَّمَانُ
كَأَنَّهَا فِيمَا حَكَى الْعِيَانُ فَوَّارَةٌ وَمَاؤُهَا دُخَانُ
فِي بِرْكَةٍ حَصْبَاؤُهَا نِيرَانُ إِذَا تَبَدَّتْ حَزَنَ الرِّيحَانِ

وقد وصف السري الرفاء المجرمة وصفاً جميلاً رائعاً فشبه دُخانها
بالعجاج وجمرها بالياقوت كما أنها لا تكتم سرّاً تستودعه لأنّ أنفاسها في كل
مجلس وذلك في قوله (٢) :

وَمَبْنِيَّةٍ مِنْ خَيْرِ زُرَانٍ مَفْضُضٍ بِقَدَمُهَا خَشَفٌ مِنَ الْإِنْسِ أَرَوَعُ

(١) ديوان الصنوبري (٣٢٢) .

(٢) المصدر نفسه (٥٠٣) .

عجّاجتُها دكناءُ في كلّ مجلسٍ وياقوتُها الحمُرُ الذي يتضوع
إذا استودعتُ سرّاً أذاعتُ بسرّها تشتتُ أنفاساً بها العيشُ يجمعُ

ووصفوا الفحمَ وكانون النارِ بصور ملونة زاهية وتشبيهات مرفقة ومن
ذلك قول البيغاء في وصف كانون بمجلس (١) :

ومجلسٍ حلّ مَنْ يحلّ به منّ المعالي أرفعَ الدّرجِ
أمسى ندام الكانون فيه لنّا أكثرُ أنس النفوسِ والمهَجِ
يُبدي لنا ألسناً كالسنة الحية ات من ثابتٍ ومختليجِ
لما بدا الفحم فيه أسودَ كالدّ ليلٍ وبثّ الشرار كالسرجِ
ودبّ صبغُ اللهب فيه بتضّ ريجِ خدود والشقائق الضرجِ
ظننت شمس الضحى به انكشفت للخلق في قبة من السّبعِ

وهو يشبه السنة اللهب المتموجة بألسنة الحيات في اهترازها وثباتها والفحم
يشبهه بالليل الأسود . والكانون المصطبغ بلون اللهب يشبهه بخدود متضرجة
بلون الشقائق الحمُر .

ويتحدث السري الرفاء عن كانون النار ويذكر أرجله الأربع التي ترفض
السير وتنتهي بقطع من الحديد كالحوافر وهي تحمل فحماً بين مورد زاه
بلهب النار وبين أسود كالظلام لم تمسه النار بعد . ويشير إلى أن للكانون أيام
وصاله في البرد وهجرانه في الصيف (٢) :

وأزهرَ وضّاح يروقُ عيوننا إذا ما رميناه بلحظِ النواظيرِ
له أربع تأبى السرى غير أنها تصافح وجه الأرض مثل الحوافرِ

(١) زهر الآداب (١ / ٢٢١) .

(٢) ديوان السري الرفاء (١٤٣) .

يَقْلُ جِسْمًا بَعْضُهَا مِنْ مُورَدٍ وَسَائِرِهَا فِي مِثْلِ صَبْغِ الدِّيَاغِرِ
نَوَاصِلُهُ أَيَّامٌ لِلْقَرِّ سَطَوَةٌ وَنَهْجَرُهُ أَيَّامٌ لِفَحِّ الْهَوَاجِرِ

ووصف أبو بكر الخالدي كانون النار وصفاً طريفاً حياً ناطقاً فقال (١) :

وَمُقْعَدٌ لَا حَرَكَ يَنْهَضُهُ وَهُوَ عَلَى أَرْبَعٍ قَدْ انْتَصَبَا
مُصْفَرٌّ مَحْرَقٌ تَنْقَسُهُ نَخَالُهُ الْعَيْنُ عَاشِقًا وَصَبَا
إِذَا نَظَّمْنَا فِي جِيدِهِ سَبَجًا صَيْرَهُ بَعْدَ سَاعَةٍ ذَهَبًا (٢)

وهو يتحدث عن الكانون المقعد الذي لا يتحرك ويقوم على قوائم أربع ويشبه لون لهب ناره الأصفر بلون العاشق المحب وهو يحول الفحم الأسود الذي يحاكي السبج إلى ذهب صاف .

ومن الأدوات التي كانت تُستخدم المرأة ، ولقد وصفها كشاجم وصفاً رائعاً حقاً فقال :

أُخْتُ شَمْسِ الضَّحَاءِ فِي الْحَسَنِ وَالْأَشْدِ رَاقٍ غَيْرِ الْإِعْشَاءِ لِلْأَجْفَانِ
ذَاتُ طَوِّقٍ مُشْرِفٍ مِنْ لُجَيْنٍ أُجْرِيَتْ فِيهِ صُفْرَةُ الْعَقْيَانِ
فَهُوَ كَالْهَالَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْبَدْرِ لَسْتُ مَضِينٌ بَعْدَ ثَمَانِ

وهو يقرنها بالشمس في الحسن والإشراق كما يصف طوقها الذي صيغ من لجين ومزج بصفرة العقيان ويشبهه وهو يحيط بها بالهالة التي تحيط بالبدر في وقت انتصافه .

وينساب كشاجم إلى وصف الصور الحميلة التي تزين ظهرها ويشبه المرأة بالشمس فيقول :

(١) ديوان الخالدين (١٨) .
(٢) السبج : الخرز الأسود والواحدة سبجة .

وعلى ظَهْرِها فوارِسُ تَلْهُو بِبِزاةٍ تَعْدُو على غِزْلانِ
عدَلَتْ عكسها الشَّعاع مَبْدَا هُ إِلَيْها "ورجعة" سِيَّانِ
وهي شمسٌ وإنْ مِثَالكَ يَوْمًا لَاحَ فِيها فإِنها شَمْسَانِ

وكما وصف شعراء الندوة السيفية أدوات الصيف والشتاء وصفوا
أدوات الموسيقى والغناء والطرب التي كانت تُستخدم في عصرهم ، ولقد
برع في هذا اللون من الشعر كشاجم حتى ليعد الشاعر الأول فيه — ولقد
افتن في وصف العود والقينة والغناء على ألوان كثيرة وفي قصائد متعددة ومن
ذلك قوله في وصفه العود (١) :

مَخْطَفُ الْحَصْرِ أَجْوَفُ جَيِّدُهُ ضَعْفُ سَائِرِهِ
لَفْظُهُ لَفْظُ عَاشِقٍ يَشْتَكِي هَجَرَ هَاجِرِهِ
ذو لَسَانَيْنِ فَوْقَهُ عَدْلًا مِنْ مَقَادِرِهِ
فَحَكَّى عَنْ ضَمِيرِهِ مَا جَرَى فِي خَوَاطِرِهِ

وهو يصف العود بأن خصره ضامر أجوف وجيده ضعف سائره ولفظه
عذبٌ كلفظ عاشق يشتكي ألم الهجر ويصف أوتاره بأنها ألسنة تنطق بما
يجري من خواطر في ضميره . ولقد وصف المعزفة فقال (٢) :

مُعْلِنَةُ الْأَوْتَارِ صَخَابَةٌ لَهَا حَنِينٌ كَحَنِينِ الْغَرِيبِ
زَادَتْ عَلَى الْمَزْهَرِ طَبِيبًا وَقَدْ تَاهَتْ عَلَى النَّايِ بِخَلْقٍ عَجِيبِ
مَكْسُوءَةٌ أَحْشَاؤُهَا حُلَّةٌ مِنْ جِلْدِ أَحْشَاءِ غَزَالٍ رَبِيبِ

(١) ديوان كشاجم (٧٧) .

(٢) المصدر نفسه (٩) .

كأنما تسعة أوتارها نُصبتْ شراكات لصيدِ القلوبِ

ونلاحظ أن كشاجم يعقد موازنة بين المعزقة والزهر والنأي ويفضلها عليهما وأحشاؤها مكسوة بحلة من جلد أحشاء غزال ربيب وأوتارها كأنها شرك نصب ولكن لصيد القلوب .

وكما وصف شعراء الندوة السيفية أدوات الترف والحضارة وصفو مرافق الحياة العامة ولم يتركوا ظاهرة من ظواهر المجتمع إلاّ وأمعنوا الوصف فيها ، ومثال ذلك وصف السري الرفاء للحمام ^(١) :

لما رأينا خمار الكأس يعلقنا عُجنا إلى بيت عاج أرضه سبجُ
بَسَبَتْ له دَاحِلٌ حَلَّ النعيمُ به وخارجُ فيه للقلبِ الشجي فرجُ
ذو قبة كسما والبُدُورُ بها جاماتها في ذراهُ الجَوُّ ينفرجُ
حرٌّ وبرْدٌ والهواءُ به معدّلٌ قِسْمَةٌ ما شأنها عِوَجُ

ويصف السري الحمام بأنه بيت من عاج وأرضه سوداء كالسبج وأن الداخل إليه يحل النعيم في قلبه والخارج منه تزول همومه وأحزانه وقبته كالسما وبدورها الحمامات ، والهواء فيه معتدل دون عوج إلى حر أو برّد .

وكتب إلى سعيد الخالدي يدعوهُ لزيارة الحمام وذلك قبل نشوب الخلاف بينه وبين الخالدين والذي أشرنا إليه سابقاً ^(٢) .

أسعِيدُ هلْ لكَ في زيارة منزل تُثْنِي عليه جوانِحُ الزّوَارِ
رَحْبٌ تُلَاقِي الجَدْرَ منه يَنَابِعاً وتَرى السَّمَاءَ عَلَيْهِ كالأقمارِ

(١) ديوان السري (٦٩) .

(٢) ديوان السري (١٤٣) .

يَنْشُؤُ الْحَيَّيُّ الْوَجْهَ ثَوْبَ حَيَّائِهِ فِيهِ فَيَخْطُرُ كَالْحُسَامِ الْعَارِي
مَتَقَلِّباً فِي نِعْمَةٍ فَضْفَاضَةٍ جُعِلَتْ لَهُ عِوَضاً مِنْ الْأَطْمَارِ

وهو يصف الحمام بأنه رجب ، ينبع الماء من جدراناه وقد سُقِفَ بقطع
من الزجاج تراها كالأقمار في السماء ، وروادها يخلع الحيي منهم ثوب
حيائه حين يدخل إليه ويخطر كالحسام العاري ويتقلب في النعمة الفضفاضة
التي جُعِلَتْ له بدل الأطمار .

ويستطرد السري فيصف الصور المرسومة على جدراناه وصفاً جميلاً
ساحراً فهي صور معركة بين جيشين متقاتلين ، وخيول الفرسان تخطر بين
القنا والسيوف المشوقة بغير بوارق والحياد تجري بغير غبار وهذه المعركة
ليس فيها عزيز متصر ولا ذليل منهزم وذلك لأنها رسمٌ وزينة على الجدران :

وَتَرَى عَلَى جُدْرَانِهِ بُهْمَ الْوَغَى يَخْطِرْنَ مَا بَيْنَ الْقَنَا الْخَطَارِ
سَلَّتْ سِوْفُهُمْ بَغِيرَ بَوَارِقٍ وَجَرَتْ جِيَادُهُمْ بَغِيرِ غُبَارِ
زَحْفَانٍ لَمْ يَحْظَ الْعَزِيزُ بِرِثْبَةٍ مِنْهُمْ وَلَا آبَ الذَّلِيلُ بَعَارِ

وكما وصف السري الحمام وصف أيضاً المزملة وهي : صخرة كبيرة
مثقوبة في وسطها من الأعلى والأسفل ويوضع فيها الماء لتصفيته وتبريده وقت
الصيف . فقال (١) :

بَدِيعَةٌ جِسْمُهَا زَبَرَجَدَةٌ خَضَاءُ يَخْفِي جَمَالَهَا الْحَجْبُ
مَجْرُوحَةٌ الْحَصْرِ غَيْرُ دَامِيَةٍ كَمَا تَكُونُ الْجُرُوحُ وَالنَّدَبُ
كَأَنَّهَا مِنْ جَفَاءٍ لِبَسْتِهَا مَقْرُورَةٌ وَالْهَجِيرُ يَلْتَهَبُ

(١) ديوان السري (٦٠) .

كَأَنَّمَا الْمَاءُ حِينَ تَبَعَتْهُ ذُوبُ الْجَيْنِ مِيزَابُهُ ذَهَبُ

ولعلك تتفق معنا على أن هذا التصوير رائع حقاً فهو يشبه المزملة بالزبرجدة الخضراء وثقبها غير دام كالجروح والنُدب وهي مقرورة والهجير يلتهب والماء حين ينبعث منها كأنه فضة وميزابه الذهب .

وهكذا نلاحظ أن شعراء الندوة السيفية قد برعوا في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية في عصرهم وأنهم لم يتركوا شيئاً إلا تحدثوا عنه في دقة وبراعة. وأن مظاهر الحضارة قد انعكست بأجلى صورها وأدق جزئياتها في شعرهم .

وهكذا يمكن القول إن هذا الضرب من الشعر يُعد فناً مستحدثاً جادت به قرائح شعراء الأمير الحمداني . ولقد اتسعت دائرته بحيث شمل جميع ما يتصل بحياة مجتمعهم فوصفوا أدوات الكتابة والشموع والفحم والنار والكانون والمجمر والمزملة والمعزفة وأدوات الغناء والطرب ، كما وصفوا الحمام إلى غير ذلك مما كان له صلة بحياة المجتمع آنذاك .